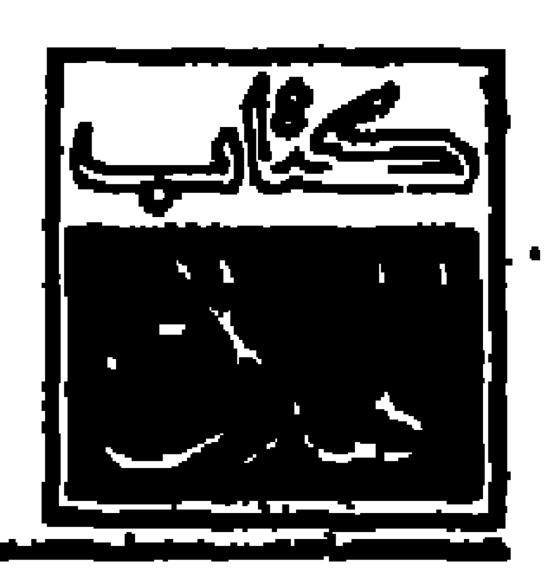

د. شكري محمد عياد
كتاب
الهلال
نحن
والغرب



للغسالات
الأتوماتيكية
FOR ALL AUTOMATIC WASHING
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co
ALEX. EGYPT
• رغوة محدودة ممتدة المفعول
• الوحيد الذي يتميز باحتوائه على أنزيمات فعاله.....
لها القدرة على إزالة البقع البروتينية
أسلوب عصري للتنظيف
شركة الإسكندرية للزيوت والصابون



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

مدير التحرير : عايد عباد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٧٧ ـ صفر ١٤١١ ـ سبتمبر ١٩٩٠

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ

تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.

فاكس : FAX 3625469

مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال ـ ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

اسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ١ دينار ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ١٠ ريالال ، الامارات ٨ دراهم ، سلطنة عمان ٨٠٠ بيسه ، المغرب ٢٠ درهما ، غزة والضفة ١,٢٥ دولار ، أنجلترا ١,٥ جك ، تونس ٢ دينار .

الغلاف تصميم الفنان :
محـــمد ابو طـــالب



بقلم
د. شكري محمّد عياد

دار الهلال

تقديم

المقالات التالية كتبت على مدى أكثر من ست سنوات . كتب بعضها فى مناسبات مختلفة ، وكتب أكثرها بدون مناسبة ، وهل تحتاج علاقتنا بالغرب إلى مناسبة ؟ نحن نعيش فيها ، ولافكاك لنا منها ، ولكننا نملك ، بكل تأكيد ، أن نغير طبيعتها . والشرط الأول لذلك التغيير أن نفهم هذا الغرب الذى نتعامل معه ، أو الذى يفرض علينا التعامل معه . وأهم من ذلك أن نفهم أنفسنا ، ولكننا قد لانحسن فهم أنفسنا إن لم نفهم الغرب أيضا ، والعالم الواحد الذى يضمنا نحن والغرب ، والذى يزداد توحدا كل يوم .

ولكنها ـ بوجه عام ـ كتبت في جو من الهدوء والاسترخاء . وبينما كان هذا الكتاب فى المطبعة فوجىء العالم كله باجتياح الجيش العراقى للكويت . وعاش الكاتب ـ كما عاش غيره من عامة الناس ـ أياما من القلق والانزعاج بجوار الراديو ، يتلقف الأخبار من كل مكان . وقد أراد أن يخرج من هذا القلق بالكتابة ، فكان المقال الأخير من هذا الكتاب ، لن يجد فيه القارىء هدوءا ولا استرخاء ، ولكن عسى ألا يفتقد نوعا من التأمل فى الأحداث ، ورغبة مخلصة فى استكشاف الطريق بين المهاوى والجبال .

والله الهادى إلى أقوم طريق .

شكرى محمد عياد

كيف نرى الغرب ؟

تابعت باهتمام « مواقف » الدكتور منصور الحازمى النقدية ، وقد بدأت بحوار حول المصطلحات الأدبية التى استعرناها من الغرب ثم غاصت إلى أعماق المشكلة الحضارية التى نعيشها فى علاقتنا بالعالم الغربى ، ويبدو لى أن الحوار يجب أن يمتد حتى نستطيع أن نقلب كل هذه الأعماق ، ونضعها على السطح ، لنتأملها بشجاعة ، بدلا من تركها راكدة تشل إرادتنا ، وتبسمم حياتنا .

إن علاقتنا بالغرب تحتوى على المقومات الأساسية للعقدة النفسية ، فهى علاقة عاطفية وليست عملية فقط ، يمتزج فيها الاعجاب بالخوف ، والحب بالكره ، للغرب فى خيالنا صورتان : صورته فى بلادنا ، متعجرفا مستبدا ، غزانا فى عقر دارنا ، وجعل بلادنا مزرعة لبلاده ، وجعلنا فيها عمالا . قضينا عشرات السنين نجاهده ليرحل ، وقبل أن يرحل ترك بيننا وكيلا عنه ، فيه كل صفات الوكيل الخائن ، الذى صمم على أن يستحوذ على كل ممتلكات سيده ، بالغش ، والقسوة ، والإرهاب البشع .

وصورته فى بلاده : إذا أسعدنا الحظ بالذهاب إليها ، بهرتنا نظمه ، وعلومه ، وفنونه ، ونظافته ، واحترامه للفرد ، حتى لو كان فردا منا ، من تلك الشعوب المتخلفة التى حرمها من كل حق فى بلادها ، لأنها فى نظره ليست أهلا لأى حق ، وإذا لم يسعدنا الحظ بالذهاب إليها ، فنحن نتلهف على كل نسمة تهب من ناحيتها ،

كتابا ، موسيقى ، فيلما ، فنا ، عمارة ، تجارة ، مأكولا ، مشروبا ، ملبوسا ، أو حتى طريقة فى تصفيف الشعر .

هل قلت صورة الغرب فى بلاده ؟ بل هما صورتان : فهناك صورة الغرب امرأة متبرجة ، سهلة .

هذه الصور الثلاث مستقرة فى أعماق كل واحد منا ، قلما يفحصها ليتبين حقيقتها من زيفها ، ولكنه غالبا يتصرف ، في الكثير من شئون حياته بوحيها ، تختلف النسب بين الصور الثلاث من شخص إلى شخص كما يختلف رد فعله نحو كل واحدة منها ، ولكنه فى جميع الأحوال متأثر بخياله أكثر من عقله ، ولذلك فهى عقدة مشتركة بيننا ، أو بين معظمنا ، كالمرض المتوطن .

نعبر عن هذه العقدة أحيانا بالعداء المستتر : فندين أخطاءه البعيدة ، ونتناسى أخطاءه فى حقنا .

ونعبر عنها أحيانا بالفخر الكاذب ، فننسب إلى أنفسنا فضائل ليست فينا ، وننسب إليه رذائل ليست فيه .

ونعبر عنها أحيانا بأن نتقمص شخصيته ، فنعيش ونعمل ونفكر كما يفعل الغربيون (أو هكذا نتوهم) . ولأن التقمص ظاهرة مرضية معروفة ، فإننا فى أعماق الأعماق من نفوسنا لا نزال نعرف أننا عرب ، ولو طال بنا هذا الحال لأمكن أن يتطور المرض إلى نوع من انفصام الشخصية .

لقد صور الدكتور الحازمى بأسلوبه الساحر الساخر قصة تاريخية طالما زلزلت مشاعرنا القومية بحسرات الفرص الضائعة : قصة ذلك القائد الألبانى الطموح الذى استطاع وهو وال على مصر أن يجلب إليها علوم الغرب وصنائعه حتى استطاع بجيشها وثروتها أن يقيم امبراطورية عربية ويدق أبواب القسطنطينية ، وما أبدع

هذه النهاية التى تخيلها الدكتور الحازمى لمغامرة محمد على : « ماذا لو فعلها الباشا ؟ ماذا لو فعلها ؟ هل كان سيتغير مصير العالم العربى ، أم كان سيتغير مصير العالم أجمع ؟ لا أحد يدرى ، ولكن المرجح أن شيئا مهما ما كان ليحدث . وأن المصير الوحيد الذى كان سيتغير هو مصير الباشا نفسه ، فيصبح خليفة أو سلطانا ولعله كان سيخلد إلى الراحة بعدئذ ويقنع بأوسمته ونياشينه ، ويكف إلى الأبد عن مغازلة أوربا ، أو التحرش بحضارتها ؟ »

ولكن لم هذه النهاية المرة ؟ إن أمر التاريخ عجيب .. نعم هناك أسباب موضوعية كما يقولون ، راجعة إلى توازن القوى أو إلى الظروف الاقتصادية .. أو ... أو .... ولكن المرء لا يستطيع أن يلغى من ذهنه أن قرارا صائبا أو خاطئا يتخذه فرد ما فى لحظة من اللحظات يمكن أن يغير تاريخ أمته ، وإلى حد كبير أو قليل تاريخ العالم ، ألم نشهد بعضا من تلك القرارات فى عمرنا المحدود ؟ ولعل محمد على لو أحكم أمره لما فتح القسطنطينية أو هدد بفتحها ولكان لدولته العربية ـ عوضا عن ذلك ـ شأن غير ذلك الشأن . ولكن ليس هذا هو المهم .. المهم هو أن الدكتور الحازمى لا يصدق أن محاولة محمد على « لمغازلة أوربا أو التحرش بحضارتها » كان يمكن أن تستمر ، حتى لو انتصر فى آخر معاركه الحربية وأخطرها ، لماذا ؟ هل نؤمن نحن أيضا ، كما كان يؤمن ذلك الاستعمارى العنيد ، « أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ؟ » وهل حقا لم يلتق الشرق والغرب ؟ وهل حقا كف محمد على ، أو كف خلفاؤه ، عن مغازلة أوربا والتحرش بحضارتها ، أم الذى حدث هو أن إرادته ـ وكانت فى هذه الحالة تمثل إرادة شعبه وجيشه ـ قد كسرت ، فلم يعد العرب يتعاملون مع حضارة الغرب تعامل الأحرار ، بل تعامل الاتباع ؟

هل هو مظهر آخر من مظاهر العقدة نفسها ، يجعلنا نتخيل أن

هذا الغرب المحبوب المكروه المعجب المخيف لا يمكن أن يمس ؟ إننا نعرف أن « التابو » أو التحريم أو اللامساس أثر مهم من آثار العقدة النفسية .

أما إذا كان الغرض من هذه القصة البارعة هو أن نتلذذ بإيلام أنفسنا ، فارجو أن يسمح لى الدكتور الحازمى بأن أنسج على منواله (ولا أطمع أن أجاريه) فأعرض عليه قصة يتطور فيها الحدث فى اتجاه معاكس لاتجاه قصته ، ولكنه ليس أقل إيلاما ..

قصة « س » من الزعماء العرب ، أو الأفارقة (س = أى واحد من عشرين ، أو ثلاثين ، زعيما معروفا ، لم أحاول إحصاء عددهم) يقضى زهرة شبابه فى كفاح الاستعمار الغربى فى بلاده ، حتى إذا تحررت البلاد وبدأت تفكر فى أن يكون لها نهجها الخاص فى الحياة ، ائتمر به رفاق نضاله ، حتى خاف على حياته ففر إلى الدولة الغربية المستعمرة ، التى فضحها ولعنها ، ليلتمس فى ظلها الأمن والحماية ..

الحقائق أيضا يمكن
أن تكـون مفرضـة

إذا ركبت سيارة أجرة ، فالشىء العادى أن يمد السائق يده إلى درج فى مواجهتك ويقلب عددا من الشرائط قبل أن يختار واحدا ويدسه فى المسجل ، وإذا خمن أنك مصرى فالغالب أن يختار أغنية لأم كلثوم ، أما ذالك السائق فكان فاتحا الراديو على محطة لندن ، الساعة التاسعة مساء .. والصوت لا يصل واضحا كل الوضوح مع حركة السيارة ولكنه لم يفكر أن يستبدل بصوت المذيع المتحشرج أغنية مسجلة .

أردت أن أناوشه فقلت له :

ـ تسمع محطة لندن ؟

شعر أن السؤال ينطوى على شىء من اللوم فقال كالمعتذر :

ـ أعرف أن بريطانيا دولة استعمارية ، ولكننى أسمع التحليلات ، المذيع يقرأ تحليلات مفيدة ويعطينى معلومات .

أردت أن أعفيه من الحرج . فقلت له :

★ الرياض ١٤ / ١٠ / ١٩٨٣

ـ حقا هم يسندون هذه التحليلات إلى مختصين ، وهؤلاء يؤدون عملهم بذمة ، كعادة الأجانب .

تمنيت لو طالت المدة لأحدثه عن هذه الذمة كما ينبغي ، فإذا كنت بريطانيا ، تكتب للاذاعة البريطانية ليسمعك العرب ، فالذمة الوطنية تقتضى منك أن تفكر فى مصالح قومك ، والذمة الإعلامية تقتضى منك أن تقول الحقيقة ، وإذا دخلت الذمتان فى صراع فلابد لك من التوفيق بينهما بأن تقول الحقائق ، التى تخدم مصلحة قومك ، وتغمض عينك عن الحقائق التى لا تتفق مع هذه المصلحة ، وهناك طرق شتى للتعامل مع الحقائق بطريقة وطنية :

١ ـ أن تحول الخاص إلى عام ، وهذا مسلك تحتاج إليه بوجه خاص إذا كنت بصدد التعبير عن موقف سياسى أو اجتماعى يتبناه قومك أو حكومتك أو الفئة التى تنتسب إليها وتتبنى آراءها (هى بلاد ديمقراطية كما تعلم) وكان معروفا لك ولغيرك أن العرب يرفضون هذا الموقف ويلعنونه ولا يوافقون حتى على الاستماع إليه فأنت تسمى ـ مثلا ـ المظاهرات العزلاء التى تواجه مغتصبى الأراضى فى فلسطين المحتلة ، اضطرابات ولا تتحدث عن اقتطاع أجزاء كاملة من جسم الوطن العربى وضمه إلى اسرائيل الكبرى ، بل تتناسى ـ بحكمة ـ كل هذه التفصيلات لتكرر الحديث ، مرة بعد مرة ، عن السلام فى الشرق الأوسط ، وإذا كان العرب يتحدثون عن « السلام العادل » والمحلل البريطانى يتحدث عن « السلام » فقط ، فإن أحدا لن يلحظ هذا الفرق البسيط .

٢ ـ أن تسمى الشىء القبيح باسم آخر جميل ، والتحسين والتقبيح شىء عرفناه نحن العرب من قديم واحفظ من شواهده فى كتب البلاغة :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه
فإن تعب قلت ذا قىء الزنابير

ولكن الغربيين بذونا فيه ، أو لعلهم عرفوا أننا مرضى بمرض عضال اسمه « حب البلاغة » فألقوا إلينا بطرائف فى هذا الباب أعجبتنا وجرت بيننا مجرى الأمثال .

أتريدون مثلا واحدا من هذه الأمثال ؟ إذن خذوا المساعدات الاقتصادية !

وكتب التاريخ الحديث التى كان يقرؤها التلاميذ المصريون منذ عهد الأسرة العلوية ـ ولا آظنها تغيرت فى هذه النقطة بالذات ـ لم تأل إسماعيل الخديوى ذما ولم تبخل عليه بصفات السذاجة والسفاهة والغفلة لأنه ورط مصر فيما قيمته مائة وعشرون مليون جنيه من الديون الأجنبية ، وتبع ذلك تدخل الدول الأوربية فى شئون الحكم ، وتعيين عضوين فى الوزارة المصرية ، أحدهما انجليزى والآخر فرنسى ، ثم تسلسلت الحوادث حتى تم الاحتلال .

وقد حاولت ، مرات ومرات ، أن أجد فرقا بين تلك الديون الأجنبية المعيبة ، وهذه « المساعدات الاقتصادية » المحبوبة ، فعجزت .

فالمساعدات الاقتصادية ، معظمها ديون واجبة السداد ، منها القصير الأجل ، الفاحش الأرباح ، ومنها ما هو أطول أمدا ، وأقل ربحا والقسم الأكبر من هذا القسم تسخو به علينا مصارف عالمية خاصة ، تمثل ما يسميه العارفون رأس المال المالى ، والقسم الأقل ـ وهو الأخف محملا ـ ما تقدمه المؤسسات الدولية التابعة لهيئة الأمم .

والأنكى أننا لا نتسلم تلك القروض المصرفية مالا نشترى به ما يناسب حاجتنا . بل نتسلمه بضائع يحدد نوعها واثمانها المقرضون أنفسهم !

ولا أظن أن إسماعيل الخديوى كان يرضى بهذا .

٣ ـ أما الحيلة الأخبث فهى أن تتناول حقيقة ما ، فتنتزعها من إطارها وتضعها فى إطار آخر من صنعك ، تخرجها من زمانها ومكانها وتقطعها عن تاريخها لتضعها داخل مخطط آخر يراد فرضه على المنطقة العربية ، فيصبح لها معنى غير المعنى ، وشأن غير الشأن ، ومستقبل لا علاقة له بالماضى .

ولهذا الفن من التغرير والتضليل حديث يمكن أن يطول ، وأهم من هذا أن أختم كلمتى بأن القوم ليسوا بأغبياء ، فهم يصنعون هذا كله بحذق وحذر ، ولا يتجاوزون الجرعة المناسبة حتى لا يتغير طعم الشراب .

وشرابهم ـ والحق يقال ـ ملىء بفيتامينات الأخبار الدقيقة ، والمعلومات التاريخية والجغرافية والسياسية المفصلة ، والقوم حريصون ـ رغم كل شىء ـ على سمعتهم بالنزاهة ، والحياد ، والموضوعية ، فطالما وضعوا مكروفوناتهم أمام رجال منظمة التحرير ، وزعماء الضفة الغربية ، والشىء الذى لا أنساه أننى سمعت ذات يوم من أيام عدوان ١٩٥٦ ، على أمواج الاذاعة البريطانية نفسها ، حديثا طويلا لزعيم المعارضة العمالية يومئذ (هيو جيتسكيل) ينتقد فيه دور بريطانيا فى الحرب بأقسى عبارات الانتقاد .

أليست هذه قمة البراعة السياسية ؟

فماذا يصنع خصمك بك ، إذا كنت أنت تسمح لبعضك أن يخاصم بعضك من أجله ؟

وحتى إذا قلت الحقيقة كاملة ، وحتى إذا أوقفت نفسك فى قفص الاتهام ، فأنت المنتصر فى النهاية ، مادام خصمك العبيط مستعدا أن يحنى الرأس أمام نبلك وعظمتك .

هل نحن أطفال ؟

صدم كثير من العرب عندما اختارت الحكومة البريطانية صهيونيا معروفا ليرأس مجلس أمناء الاذاعة البريطانية ، فمعنى ذلك أن الصهاينة قد وضعوا أيديهم على جهاز من أهم اجهزة الدعاية فى العالم ، هذه هى طريقتنا ـ نحن العرب ـ فى فهم مثل هذه الأمور ، والغربيون يضحكون علينا ويقولون عنا أننا ناس متخلفون ، وإننا تعودنا من كل من يرأس عملاً أن يفرض سلطانه على جميع مرؤوسيه ، وألا يجعل لأحد منهم كلمة بجانب كلمته ، ولذلك نحسب أن الناس جميعا مثلنا ، وننسى أنهم قوم متحضرون ، ديمقراطيون ، الخ . وربما كانوا كذلك ، وربما كنا نحن (كذلك) أيضا ، ولكننا نعرف أنهم ، بكل ديمقراطيتهم ـ يصلون دائما إلى فرض إرادتهم ، الرئيس الديمقراطى يفرض إرادته على شعبه الديمقراطى ، والشعب الديمقراطى يفرض إرادته علينا نحن الشعوب المتخلفة التى لم تستطع بعد أن تتطبع بطبائع الديمقراطية الغربية ، لاتنسوا السيدة الحديدية : المسألة فقط مسألة اسلوب ، ولاشك فى أن الأسلوب الذى يستطيع بواسطته شخص ما (أ) أن يقنع شخصا آخر (ب) بأن يسير مفتح العينين (فى الظاهر على الأقل) فوق سطح عمارة من ثلاثين طابقا ليلقى بنفسه مبتسما إلى الشارع ، هو إنجاز عظيم من انجازات

★ الرياض ٢١ / ١٠ / ١٩٨٣

الحضارة ، إذا قورن بالأسلوب الآخر المتخلف ، الذى يسمح لـ (أ) ، بل يوجب عليه ، أن يمسك (ب) من أذنه أو يدفعه من قفاه ليجبره على تجرع الدواء المر .

لم تكن ثمة فائدة ـ إذن ـ من إظهار الغضب لأن السيدة الحديدية اختارت صهيونيا بارزا ليتولى مسئولية أهم جهاز إعلامى فى بلادها ، فنحن نفكر بمنطقين مختلفين ، وهم لا ينظرون إلينا إلا على أننا أطفال ، وأحيانا أطفال أشقياء ، وهاك الدليل :

بعد أن أصبحت قضية تعيين هذا الرئيس أمرا واقعا (وما أكثر الأمور الواقعة التى نواجه بها كل يوم) كان من الواجب شرح المسألة لهؤلاء الأطفال الأشقياء ، فهم على كل حال يعيشون معنا فى المنزل الكبير ، ولابد من أن يسيطر السلام على هذا المنزل ، فثمة ـ على الجانب الآخر من الشارع ـ أعداء متربصون ، ولا ينبغى أن تترك لهم فرصة لبذر بذور الفساد فى المنزل الكبير ، ومن أهم أسباب هذا الفساد تأليب الصغار على الكبار ، وإذن فلابد من أن يقتنع الصغار بصواب القرار الذى اتخذ فى غير مصلحتهم ، وتقضى أساليب الديمقراطية ، و(تكنيك) الدعاية ، وقواعد التربية السليمة ، أن نشرح لهم المسألة تدريجيا ، كما نقدم جرعات الدواء ، أو جرعات المخدر ، أو جرعات السم المميت ، سيتقبلونها أولا على مضض ، ولكنهم سيألفونها شيئا فشيئا ، ثم تصبح جزءا من كيانهم حتى ليصيحون مطالبين بها ، ولكن كيف السبيل إلى إقناعهم بالجرعة الأولى ؟ هذه هى أصعب خطوة ، ولكى تتم بنجاح يجب أن تؤخذ بحزم ، وهى أبعد شىء عن خاطر الفريسة ، حتى لا تفكر ، فترفض ، فتقاوم .

وكانت الخطوة الصعبة والجريئة وغير المتوقعة هى أن أجرت الإذاعة البريطانية حديثا مع نفسها ، هذا يبدو أمرا غير معقول عندما يوضع على هذه الصورة ، ولكنه من الناحية العملية أمر غاية

فى البساطة والسهولة ! أحد مراسلى الإذاعة البريطانية أو محرريها يجرى حديثا مع رئيسها الجديد ، ويذاع الحديث بالإنجليزية مرتين ، ويترجم ويذاع بالعربية مرتين أيضا ، الرسالة : نحن قوم صرحاء ، نحن نعمل فى النور ، نحن لا نخفى شيئا ، ورسالة الرسالة : ليس لدينا ما نخفيه ، وبالذات عنكم أنتم العرب : ورسالة رسالة الرسالة : ليس لدينا ما تخافون منه أيها العرب .

فإذا بدأنا نستمع إلى الحديث ، وراودتنا بعض الشكوك ـ رغم أننا مازلنا مذهولين لهذه المفاجأة أو هذه الصفاقة ، فرسالة رسالة رسالة الرسالة هى :

هل أنت واثق من سلامة تفكيرك حول هذا الموضوع ؟

ليس المهم ما يقوله الحديث ، إنه صدمة ثانية ، زودت بأحدث أجهزة امتصاص الصدمات التى ابتكرتها صناعة الدعاية ، ولكن لا أحد يجهل انها صدمة ، رئيس أكبر أجهزة الدعاية البريطانية يقول صراحة : نعم أنا صهيونى ، ولكن هلْ يمثل هذا الخبر (معلومة) جديدة حقا بالنسبة لأحد من المستمعين ؟ وإذن فما فائدة تقريرها مرة أخرى ؟ الفائدة المطلوبة ، والمحسوبة ، هى :

الأغلبية الساحقة من مستمعينا العرب (وقد لا يختلفون فى هذا عن غيرهم من الشعوب) متوسطو الذكاء ، ومتوسطو الذكاء يفكرون بالطريقة الآتية : العدو لا يجاهر بالعداء إلا إذا أراد الدخول فى معركة صريحة ـ هذا الرجل لا يهاجمنى ـ إذن فهو ليس بعدو .

وتتسلسل الأقيسة المنطقية بهذه الصورة ، حتى نصل إلى رسالة رسالة رسالة الرسالة .

أما فريق الأذكياء فيقول : هذا الرجل يواجهني بأنه صهيوني ، ومعنى ذلك أنه لا يهتم برأيى فى الصهيونية ولا فيه هو شخصيا ، هو حقا لا يهاجمنى ، ولكن لماذا يهاجمنى مادام غير مهتم بى ؟ هو إذن يريد أن يقول لى : أنتم أضعف من أن تواجهوا الصهيونية وأصدقاءها ، وإذا كنتم تعرفون مصلحتكم حقا ، فالأفضل لكم أن تكفوا عن هذه المحاولة التى لا جدوى منها .

وهكذا يصل الأذكياء منا إلى (خاتمة الرسائل) بسرعة أكبر ! وهذا هو الوضع الطبيعى ! فالأذكياء يقودون سواد الناس إلى النتيجة النهائية : قبول « الأمر الواقع » الذى تريد الصهيونية العالمية أن تفرضه على الشعوب العربية !

لا بأس بأن يوضع مع هذا التقرير المدوى ـ على الرغم من أنه لا يقرر أية حقيقة جديدة ـ بعض (ماصات الصدمات) : أنا صهيونى إذا .... إذا كان المقصود بالصهيونية هو أن يكون لليهود وطن . (أليس من العدل أن يكون لكل شعب وطن ؟ الرجل إذن يطالب « بحق تقرير المصير » لليهود ! لعله إذن يجهل تاريخ الصهيونية فى فلسطين وخارج فلسطين ؟ لعله يجهل أن فى نيويورك نفسها وطنا آخر لليهود ؟ لعله يجهل التاريخ كله والجغرافيا كلها ؟ الأرجح أنه لا يمكن أن يكون جاهلا إلى هذا الحد ، ولكنه يغمض عينيه عن كثير من الأشياء ، فهو يتمتع بأدب « فكتورى » أصيل ، وإذا كان الإنجليز فى عصرنا هذا قد أصبحوا يمقتون الأدب الفكتورى بوجه عام ، فلابد من استثناء واحد على الأقل ، وهو أدب السياسة .

فى وقت من الأوقات كان المندوب السامى فى القاهرة يبعث إلى رئيس الوزراء المصرى طالبا منه الاستقالة ـ آمرا إياه فى الواقع ـ ويكتب قبل توقيعه « خادمك المخلص المطيع » .

شىء واحد سقط من حساب مهندسى الدعاية ، وهو أننا ـ الأذكياء ومتوسطى الذكاء فينا ـ لم نعد نستعمل الذكاء الفطرى وحده ، لقد خبرناهم جيدا ، يعنى لم نعد أطفالا !

تنبهوا ! !

مسألة الأقليات قديمة قدم التاريخ ، أقليات عنصرية وأخرى دينية ، كثيرا ما تلصق بها ذنوب لم ترتكبها ، فيكون عليها وحدها أن تتحمل أخطاء المجتمع ككل ، الأكثرية تتعصب لتحل مشكلاتها (كما تتوهم) على حساب الأقلية ، والأقلية تتعصب لتدافع عن نفسها ، وبما أن العنصر أو الدين وحدهما لا يسببان مشكلات اجتماعية ، فإن اضطهاد الأقلية لا يحل المشكلة ، بل يضيف إليها مشكلة أخرى ..

وقد تفاقمت مشكلة الأقليات فى العصر الحاضر ، والمسلمون فى مختلف بلاد العالم (حتى بعض البلدان المتحضرة) هم الأقلية التى تعانى أشد ألوان العنت ، وفى أحسن الظروف يعاملون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، هذا مع أن الأقليات فى الدول الإسلامية كانت ولا تزال تتمتع بحقوق مساوية لحقوق الأكثرية المسلمة ، وتزيد عليها بحقوق طائفية خاصة . وبيان ذلك أن الإسلام لا يعترف بسلطة خاصة لرجال الدين ، كما هو الشأن فى الأديان الأخرى ، ومن ثم تصبح لأصحاب تلك الأديان ، فى البلاد الإسلامية ، مؤسساتهم الدينية ، وتصبح لتلك المؤسسات حقوق التملك ، وإدارة ممتلكاتها ، وإنشاء المدارس ، وغيرها من المنشآت الاجتماعية ، ورعاية أبناء الطائفة عموما ، بحيث يستطيع أبناء الطائفة أن يعتمدوا عليها فى الكثير من أمور حياتهم ، إلى جانب كونهم متمتعين برعاية الدولة كسائر المواطنين .

هذا امتياز للأقليات الدينية فى البلاد الاسلامية ، ألفناه من قديم حتى لم يعد مثار عجب أو حسد ، أما العنصرية فلا تجتمع والإسلام فى مكان . وقد كان جيل أبائنا وأخوالنا فى مصر جيلا عرف إباحة الرق ، فعرفنا بين هذا الجيل من كان عبدا فاعتقه البيت الذى رباه وزوجوه من بنتهم ، ولا مجال للمقارنة بين هذا السلوك الإسلامى وبين ما يلقاه السود (عرقيا لا لونيا) فى بلد كالولايات المتحدة تحرر عبيده ، قانونا ، منذ أكثر من مائة سنة ، ولكن نسبة ١ /٣٢ من العنصر الزنجى فى سلالة إنسان ما تكفى لإلحاقه بالملونين ، مع ما يتبع ذلك من تمييز جرت به الأعراف والعادات ، وإن أنكرته القوانين .

لماذا إذن ـ هذا الاهتمام المستمر من قبل الإذاعات الأجنبية بالحديث عن « الأقليات » فى شرقنا العربى الإسلامى ؟

ألأن لهذه المسألة جاذبية خاصة للغرب الاستعمارى ؟ فمن الموافقات الغريبة ـ بغير شك ـ أنها لم تبدأ فى الظهور فى هذه المنطقة من العالم إلا حين ضعفت الإمبراطورية العثمانية ، فطردت ـ أولا ـ من أوربا ، ثم استعدت الدول الغربية الكبرى لابتلاع أقاليمها العربية ، هنا بدأ « الوضع الخاص » لجبل لبنان ، وأخذ الإنجليز يفتعلون الفتن بين أبناء البلد والأقليات الأجنبية فى مصر ، ثم يتوسعون ، فيحاولون إثارة الفتن بين المسلمين والأقباط ، حتى إذا اضطروا إلى إعلان وثيقتهم بالاستقلال المنقوص ، فى ٢٨ فبراير ١٩٢١ ، « كانت حماية حقوق الأقليات » أحد التحفظات على ذلك « الاستقلال » !

ولم تعرف هذه المنطقة من العالم ، قبل عهد الاستعمار ، مشكلة أقليات حتى عندما جاءنا المعتدون من الغرب ، يحاربوننا متمسحين باسم الصليب ، بقيت الأقليات فى شرقنا العربى الإسلامى آمنة فى ديارها ، إن الذين يكتبون التاريخ يمكن أن

يكذبوا ويزيفوا ، أما الواقع فلا يكذب ولا يزيف ، وواقع حال الأقليات فى منطقتنا العربية الإسلامية أنها وفيرة العدد ، وافرة الثراء ، وكذلك وجدها المستعمرون عندما قدموا ـ ضيوفا ثقلاء ـ إلى هذه الديار .

وقد شهدت فى صباى حملة الصحافة المصرية على البعثات التبشيرية ، ولم يكن أحد يجهل أن هذه البعثات ليست إلا جناحا فى جيش الاستعمار ، وأهم من هذا أنها كانت تستهدف المسلمين والأقباط على السواء (كمثيلاتها فى لبنان) . وتحضرنى وأنا أكتب هذه الكلمات صورة صديق قبطى فى مثل سنى آنذاك ، وهو يتحدث بانفعال صادق (وهل كنا نعرف الكذب فى تلك السن ؟ !) عن نشاط المبشرين الأجانب فى الصعيد .

وعلى ذكر هذا الصديق ، أكاد أجدنى ـ حين أعرض هذا الموضوع الذى يمكن أن يراه الناس شائكا بل خطرا ـ أتحدث من قلب تجربة المسلم وتجربة القبطى معا . اسمى طويل جدا ولذلك تعود الناس ـ منذ كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية ـ أن يختصروه إلى (شكرى عياد) . وهو اسم قبطى أصيل ، ولذلك كان ينظر إلى من ناس كثيرين على أنى قبطى ، ثم يمكن أن يكتشف أنى مسلم ، ولكنى لا أذكر أن ذلك سبب لى أى حرج ، لا وأنا بين الأقباط ولا وأنا بين المسلمين ، نعم ، وقعت لى أمور أشبه بالنوادر ، حدث مرة أنى كنت مسافرا فى قطار الصعيد ، والمسافة من سوهاج إلى القاهرة تستغرق نحوا من ثمانى ساعات ، واشتبكت فى حديث مع جارى ، وطال الحديث ، وعرف اسمى ، وبعد قليل فوجئت بسؤاله :

ـ ومن القسيس الذى زوجك ؟

فضحكت ، وأجبته :

ـ أنا زوجنى مأذون .

فنظر إليّ بشيء من الدهشة ، ولا أدرى هل ظن أنى كنت قبطيا فأسلمت ، أم تعمدت أن يكون اسمى هكذا حتى أضحك على المسلمين والأقباط معا ؟ كان ذلك فى أواسط الخمسينيات ، لم أشعر قط قبلها أنى بحاجة إلى أن أميز اسمي بعلامة فارقة ، ومع أن سوء التفاهم هذا كان ـ كما قلت ـ أشبه بنادرة مضحكة ، فقد رأيت من حق الرجل وأمثاله عليّ أن يعرفوا اسمى كاملا .

ثم واصلت الحديث .

من « المستعمر » ؟

لم يعد خافيا أن علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد وما إليها من العلوم الإنسانية تخضع فى الدول الاستعمارية لمصالح تلك الدول .

وقد تغرنا مظاهر الديمقراطية وحرية الفكر عندهم حتى نحسب أنه يمكن أن يوجد علم خالص لوجه العلم فى هذه الأبواب التى تمس نظم المجتمع وأساليب الحياة مسا مباشرا ، ولكن الواقع المشاهد هو أنه مهما يتسع مدى الحرية لديهم فى التعبير عن الرأى فإنه يظل عاجزا عن تجاوز الحدود التى تمليها تلك المصالح .. ومن تلك الحدود ـ ولاشك ـ التناقض الذى يمتد أربعة عشر قرنا بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى المسيحى .. ذلك التناقض الذى أخذ خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة شكل صراع بين دول أوربية استعمارية وأقطار عربية مستعمرة ..

وللقوم طرق فى تقييد حرية الرأى لا تعتمد على القوانين الاستثنائية فهناك ـ إن فى شرق أوربا أو غربها ـ أساليب للحصار الفكرى تشل قدرة الكاتب أو المفكر على الاتصال بالجماهير ، أى أنهم لا ينسفون المحطة الكهربائية ولكنهم يقطعون (الكابلات) . ولعلك علمت كيف يحاولون جاهدين أن يجمدوا نشاط المفكر الفرنسى رجاء الجارودى ويئدوا مؤلفاته بعد أن أشهر إسلامه .

ومن أسف أننا لانزال نتلمذ لهؤلاء المستعمرين فى العلوم الإنسانية كما نتلمذ لهم فى غيرها .. ولاشك فى أنهم متقدمون علينا فى طرق البحث العلمي ولكن اعترافنا بإتقان الصنعة لا ينبغي أن ينسينا أن المادة مغشوشة . ونحن نعلم أن من واضعى الأحاديث الذين نسبوها كذبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانوا يدلسون فى أسانيدها ، أى يتقنون تزييفها ، حتى تبدو كالصحيحة ، فلا يتبين ضعفها إلا بالنقد الدقيق ..

وصناعتهم المحكمة في باب العلوم الإنسانية لا تقتصر على تنظيم طرق البحث وتوفير أدواته ، وإنشاء معاهده وتدعيم مؤسساته ، فإنهم يجعلون نتائج هذه البحوث ميسرة للجمهور بوسائل الإعلام الحديثة التى تكاد تقتصر مهمتها عندنا على التسلية الفجة ، أما جمهورهم الذى يعيش وإياهم فى مناخ فكرى واحد فإنهم لا يخادعونه ولا يضللونه بل يتحركون معه بصدق وأمانة داخل الحدود التى وصفناها ليجعلوه أكثر وعيا بهذا المناخ الفكرى ، وأما جمهورنا الذى يخاطبونه من خلال إذاعاتهم العربية الموجهة فما كانوا ليهتموا بمخاطبته أصلا لو كان قصدهم تنويره وإرشاده ، إنما قصدهم أن يجذبوه إلى قبول وجهة نظرهم فى المسائل المشتركة .. وإذا كان الشريكان غير متكافئين ، ومصلحة كل منهما مباينة لمصلحة الآخر فاقتناع الشريك الأصغر بوجهة نظر الشريك الأكبر معناه ببساطة انخداعه له ..

هذا كله طبيعي وبدهى وان كنا لا نذهب إلى حد القول بأن اختلاف المصالح واختلاف وجهات النظر بين الفريقين يستتبع بالضرورة أن لا يلتقيا أبدا على فكرة واحدة .. فهذا زعم مضحك ، والذين يأخذون به يتصورون أن مجرد مخالفة ما يقوله الغرب هى الطريق إلى الصواب فإذا قال الغربى شمالا قلت جنوبا ، بل إذا قال شرقا قلت غربا .. ومثل هذه الطريقة الساذجة لمعرفة الحقيقة يمكن أن توقع فى أفحش الخطأ بل يمكن أن تسهل للخصم خداعنا

والتغرير بنا .. فما عليه إذا أراد أن يقنعنا بأمر ما إلا أن يدعى عكسه ، أو إذا أراد أن يغرينا بفعل ما إلا أن ينصحنا بضده ، كما نفعل مع أطفالنا فى كثير من الأحيان ..

ولكننا ـ على كل حال ـ قد لا نجد كلمة تثير من الخلاف بيننا وبينهم ما تثيره كلمة (الاستعمار) ..

فقد بعث أحد المستمعين العرب إلى إذاعة أجنبية بسؤال مؤداه ، ما هى الأقطار العربية التى استعمرتها بريطانيا ، ومتى بدأ هذا الاستعمار وكيف ، ومتى انتهى وكيف ؟ ولعل هذا المستمع أراد أن يتخابث على الإذاعة المذكورة وأن يحرج العلماء الذين تستكتبهم إجابات مختصرة على مثل هذه الأسئلة ، ولكن استاذ السياسة الذى أجاب عن سؤال المستمع العربى خرج منه كما تخرج الشعرة من العجين ، فقد قال بكل ثقة واطمئنان إن بريطانيا لم تستعمر أى قطر من الأقطار العربية .

أما مصر فقد انحصرت سياسة بريطانيا نحوها فى منع وقوعها تحت سيطرة دولة أخرى ، يمكن أن تقطع طريق بريطانيا الحيوى إلى الهند ، وظلت جزءا من الدولة العثمانية إلى أن دخلت هذه الدولة فى حلف مع ألمانيا ضد بريطانيا وحلفائها ، فلم يكن بد من إعلان الحماية البريطانية عليها أثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم لم تلبث أن ظفرت باستقلالها ، وأما فلسطين والعراق فقد كانت بريطانيا (منتدبة) من قبل عصبة الأمم للاشراف على شئونهما إلى أن يصبح أهلهما قادرين على إدارة هذه الشئون بأنفسهم . وأما شرق الأردن فقد كان سكانه دائما قبائل مستقلة ، ولكنها ارتضت أن ترتبط ببريطانيا بمعاهدة صداقة ، وأما (محميات) الخليج فقد عمد بعض شيوخها إلى مضايقة تحركات الأسطول البريطانى ، فلم يكن بد من إيجاد رابطة ما بينها وبين بريطانيا ضمانا لسلامة هذه التحركات .

كل هذا محتمل وقد يؤخذ على أنه تنصل من أوزار الاستعمار وإن كان من المستحيل أن تتنصل بريطانيا أو يتنصل أى بريطانى بحكم مسئوليته عن تصرفات دولته (الديمقراطية) من تبعة هذه الدولة التى (انتدبت) لتدبير شئون قوم لم يبلغوا بعد سن الرشد فسلمت أرضهم إلى عصابة من شذاذ الآفاق .

ولكن الشىء الأخطر هو تعريف (الاستعمار) الذى تبرع به أستاذ السياسة البريطانى لهذا المستمع وغيره من المستمعين العرب ..

فالاستعمار عند هذا الأستاذ - وليس هذا برأى شخصى له ولكنه يقدمه على أنه حقيقة علمية - لا شأن له بتحكم دولة ما فى شئون قطر آخر خارج عن ترابها الوطنى بحيث تسيطر الدولة المستعمرة على ثروات ذلك القطر ، وتتحكم فى نظمه الاجتماعية وعلاقاته بغيره من الأقطار ، سواء أدخلته تحت سلطانها دون استشارة أهله ، أم حصلت على تفويض (بالانتداب) أو (الوصاية) على ذلك القطر من قبل هيئة ما .. ليس هذا هو مفهوم (الاستعمار) عند علماء السياسة فى هذا العصر ، فتعلموا معناه العلمى الدقيق أيها المتخلفون .

الاستعمار - يقول ذلك الأستاذ .. هو أن تنزل فى البلد المستعمر أعداد كبيرة من بلد آخر ، وتتخذه وطنا جديدا لها . وبناء على هذا التعريف يسلم الأستاذ بأن البريطانيين حقا قد استعمروا كينيا وزيمبابوى (وأظنه تحاشى ذكر جنوب أفريقيا) كما استعمر الفرنسيون الجزائر .

وككثير من هذا (العلم) الذى يأتينا من الغرب ، لا نكاد ننزع عن هذا التعريف ثوب التهويش والادعاء الفارغ والدقة العلمية المصطنعة حتى نجده أوهى من نسيج العنكبوت .. فهل تعد الأقلية

الأوربية التى بقيت فى كينيا أو زيمبابوى بعد انتقال السلطة إلى أيدى حكومات وطنية أقليات « مستعمرة » ؟ وهل كان يعد « المعمرون » الفرنسيون في شمال الجزائر لو بقوا هناك بعد الاستقلال (فإنهم لم يجبروا على الخروج ، بل هربوا من تلقاء أنفسهم خوفا من أن يحاكموا على الجرائم التى ارتكبوها ضد الوطنيين) هل كانوا يعدون (مستعمرين) أيضا ؟ ؟

ولكن الأستاذ البريطانى لا يخاطب أهل كينيا أو زيمبابوى ، ولعله واثق أيضا من أن معظم مستمعيه الجزائريين قد نسوا أمر المعمرين الفرنسيين وكيف خرجوا من بلادهم ، ولكن الأستاذ البريطانى يوحى إلى مستمعيه بفكرة رهيبة ، القصد منها هو القضاء النهائى على الحضارة العربية الإسلامية ، ومن عادة القوم أن يخفوا نواياهم المحددة فى ثنايا حديث عام مثلما يلبسون مغالطاتهم ثوب الحقائق العلمية ويوردون دعاواهم الكاذبة فى معرض الاستدلال كما لو كانت قضايا مسلمة ..

ولنكن صرحاء ...

القوم ـ منذ عهد الأندلس ـ تغلبوا علينا بفضل خلافاتنا ، وقد صاغوا خبرتهم معنا فى قاعدة ذهبية (فرق تسد) وقد عملوا دهرا على إقناع كل بلد عربى بأن له (قوميته) الخاصة ، كان ذلك فى عهد الاستعمار الصريح ، ولكنه ما كاد يتراجع حتى وجد الحكومات العربية والإسلامية تتقارب وتتساند ، والشعوب العربية والإسلامية تتلاقى وتتآخى ، فعمد إلى أكذوبة أشد دهاء ومكرا :

إن فى كل قطر عربى طائفة أو طوائف تصعد بوجودها فى ذلك القطر إلى ما قبل العصر العربى ، وقد خرج العرب من جزيرتهم حاملين لواء الإسلام ، مبشرين بحرية العقيدة وكرامة الإنسان ، فخلصوا شعوب هذه الأقطار من الظلم الاقتصادى والتبعية

السياسية والتعصب الدينى ، ولم يجلوهم عن أراضيهم ولكنهم جاوروهم بالحسنى ، وشاركوهم فى السراء والضراء حتى أصبح الجميع عربا ، لغة وثقافة وحضارة ، إذ إن العرب المسلمين لم يضطهدوا أحدا لدينه أو جنسه ، ولم ينظروا إلى اختلاف الدين أو الجنس فى أى أمر مهم من أمور الدنيا ..

ولكن تعريف (الاستعمار) ـ كما أورده الأستاذ البريطانى ـ ينطبق على العرب ! وإذن فلتقم الطوائف العرقية والدينية فى مختلف أقطار العالم العربى ضد الأكثرية العربية المسلمة لأن هؤلاء هم المستعمرون وليسوا (أوصياءنا) الغربيين !

هذه هى المؤامرة الكبرى .. !

الشرق والغرب بين الجغرافيا والتاريخ

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا » كلمة قالها شاعر الاستعمار منذ قرن تقريبا ، ومازال كثير من الناس يؤمنون بها ، مع أن كل تلميذ فى المدرسة الثانوية يعلم أنها تنطوى على خلط مقصود بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية ، ولاسيما الجغرافيا الاقتصادية ، فأهل الشرق وأهل الغرب يلتقون فى التجارة والزيارة ، وفى الحرب والسلم ، منذ كان الشرق والغرب ، هذه حقيقة مسلمة مثلما أن الجهات الأربعة الأصلية لا يمكن أن تختلط إلا يوم القيامة .

ولكننا نشكر للشاعر الاستعمارى أنه عبر بصراحة عن موقف ، لا يختلف كثيرا عن موقف أنصار « الأبارتهيد » أو التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا اليوم ، وإذا كان قد استخدم فى عبارته نوعا من المجاز ، على عادة الشعراء فى حين أن هؤلاء لا يزعجون أنفسهم بشرق ولا غرب ، ولا جنوب ولا شمال ، بل يدفعون السود إلى المناطق المجدبة أينما كان اتجاهها الجغرافى ـ فالفرق بينهما ليس كبيرا على كل حال ، إنما المشكلة حين يلتبس « الموقف » بـ « الحقيقة العلمية » .

وبيان ذلك أن فريقا كبيرا من علماء التاريخ والاجتماع ، ومن

المستشرقين الذين يعدون أيضا علماء اجتماع ، مثل « جاك بيرك » أو الذين يلمون بعلم الاجتماع وهم جل المستشرقين اليوم ، يتحدثون عن حضارة الغرب من جهة ، وعن الحضارة العربية ، أو الإسلامية ، أو حضارة الشرق الأوسط من جهة أخرى ، كما لو كانا شيئين منفصلين لا يمكن أن يلتقيا إلا إذا التقى الشرق والغرب الجغرافيان .

هو إذن « موقف » شبيه بموقف « كبلنج » ولكنه لا يتستر بثوب المجاز الشعرى الشفاف ، بل يتقدم إلى محفل الحقائق العلمية حاملا بطاقة دعوة عليها اسم غريب مهيب ، إلا وهو اسم « الحضارة » (وهو في العربية ـ بفضل هذه الضاد ـ أعظم هيبة حتى من عديله الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى) .

وأنا أدعو إلى التحقق من صحة هذه البطاقة ، فحاملها يمكن أن يكون واحدا من ثلاثة : يمكن أن يكون هو « العمران » الذى تحدث عنه ابن خلدون ، وهو سنة من سنن الله فى الكون ، أى أنه أمر ثابت من حيث حقيقته وجوهره ، وإن اختلفت أحواله وأشكاله ، ويمكن أن يكون هو « الأنثروبولوجيا الثقافية » أو ثقافات الشعوب وهو علم له وجاهته ، ابتكره الغربيون حين جابوا أركان المعمورة وصادفوا أقواما قريبين من الفطرة ، فجمعوا كل ما استطاعوا جمعه عن أحوالهم وأساليب معيشتهم ، ثم أخذوا يفسرون هذه الأحوال والأساليب بقانون السببية (كما هو شأن الدراسات العلمية عموما) مبينين كيف يتوقف بعضها على بعض ، ويكمل بعضها بعضا ، ولكن مشكلة هذا العلم هى أنه ينظر إلى التغير الحضارى نظرة سلبية ، أى أن المسألة بالنسبة إليه ليست مسألة « تغير » ، بل تغيير ، فالتغير ينطوى على قدر ما من الفاعلية والابداع ، بينما « التغيير » له طرفان : الطرف الذى يحدث التغيير وهو الحضارة المتغلبة ، والطرف الذى يتقبل التغيير وهو الحضارة المغلوبة ، وإذا تأملت هذه الفكرة وجدتها قاصرة علميا ، لأنها لا

تفسر إلا حالة واحدة ، وهى حالة الذوبان التام للحضارة الأضعف فى الحضارة الأقوى ، وهو ذوبان يحتاج غالبا إلى « تصفية » دموية ، ولكنه قليلا ما ينجح ، والذى يحدث فى معظم الحالات هو نوع من « التفاعل » بدرجاته المختلفة ، بحيث إن المغلوب يؤثر فى الغالب ولو إلى حد ما ، كما أنه يتأثر به ، سواء أكان هذا التأثير نحو الأحسن أو الأسوأ ، فمن أطرف ما قرأته عن تاريخ الاستعمار البريطانى فى الهند أن الموظفين البريطانيين فى أوائل عهد الاستعمار كانوا يتشددون فى تنفيذ النظام ، ولا يراعون عادات البلاد ، ولكن الأجيال التالية أصبحت أميل إلى اللين والتفاهم ، ومراعاة « الخواطر » فى كثير من الأحيان ولو على حساب النظام أى أنهم أصبحوا « إنجليزا هنودا » كما أن كثيرا من الهنود ـ بدون شك ـ أصبحوا « هنودا انجليزا » .

كلمة « الحضارة » إذن ، كمفهوم ثابت ومتميز ومتكامل ، لا تعبر عن حقيقة علمية ، بقدر ما تعبر ـ مرة أخرى ـ عن موقف ، الموقف نفسه الذى يقول أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، وهذا هو موقف الفئة المتسلطة دائما ، لأنها الفئة التى ترغب فى بقاء كل شىء على ما هو عليه ، والواقع أن لكلمة الحضارة علاقات مشبوهة ـ من هذه الناحية ـ بما يسمى علم الأجناس البشرية ، أو الاثنولوجيا ، بل أن « الانثروبولوجيا » الثقافية ، التى حددت المفهوم الحديث للحضارة وطرق بحثها ، تعد قسيما لعلم الأجناس البشرية هذا ، الذى يسمى أيضا « الأنثروبولوجيا الطبيعية » . وهذا العلم الأخير موضوعه تصنيف البشر من حيث الصفات الجسمية ، كالطول وشكل الجمجمة ، ولون الشعر والبشرة الخ . ومع أن هذا العلم لا يتعرض بالضرورة للصفات النفسية أو العقلية ، فإنه ينطلق من فكرة « التمايز الأساسى » ، الذى لا يوجد فى الواقع إلا نادرا ، وهو أيضا علم مزعزع الأركان ، فعلى الرغم من المقاييس الكثيرة التى ابتكرها ، فإن هذه المقاييس كثيرا ما

تؤدى إلى نتائج متضاربة ، ومن ثم يختلف علماء الأجناس اختلافا شديدا حول تحديد ما هى هذه الأجناس ، حتى الأساسية منها .

ولكن كلمة « الحضارة » وقد رأتنا نقلب بطاقتها غير مقتنعين ، ونتأمل صفحة وجهها مرتابين ، تفزع إلى التاريخ ليدل على حقيقة هويتها ، فهى تدعى أننا ننسبها ظلما إلى الشعوب البدائية ، وتتهمنا بأننا أخطأنا فى الترجمة ، وتزعم أنها مختصة بالدول التى كان لها شأن فى تاريخ العالم ، وتحيلنا إلى مجلدات توينبى الضخمة الشهيرة عن « علم التاريخ » . لقد لجأ توينبى إلى فكرة « الحضارة » (لعلها تفضل أن نسميها « المدنية » ؟) ليصنف ذلك الحشد الهائل من الوقائع التاريخية المنتشرة فى الزمان والمكان ، فثمة حضارة يونانية وحضارة مصرية وحضارة صينية كما أن هناك حضارة إسلامية ، والحضارات أو المدنيات بعضها أصول وبعضها فروع ، ولها أعمار ، فقد تخلف حضارة جديدة حضارة سابقة فى نفس المنطقة . وقد حاول توينبى أن يتوصل إلى بعض القوانين فى نشوء الحضارات واندثارها ، وأهم هذه القوانين هو قانون « التحدى والاستجابة » . فالنجاح فى التغلب على التحديات هو منشأ الحضارة ، أما سقوط الحضارة فيرجع غالبا إلى العجز عن مواجهة تحديات داخلية ، بحيث تكون الحضارة مرشحة للانهيار قبل أن يقضى عليها عدو خارجى . لاشك فى أننا هنا أقرب إلى الروح العلمية فى جمع الوقائع وتفسيرها ، ولكن هناك نوعا من التحكم فى إبراز الفوارق بين الحضارات ، لا يصل إلى حد التعصب الواضح للحضارة الغربية المسيحية كما هى الحال عند هيجل ، ولكن فيه قدرا كافيا من الغرور بحيث إن توينبى يقول بإمكان استمرار الحضارة الغربية ـ بالذات ودون غيرها ـ إلى ما لانهاية !

لا جرم أننا نرتاب فى كل هذه المفاهيم لكلمة « الحضارة » ونرى فيها بعثا لفكرة التمايز الأصيل الثابت كثبات الجهات الأربعة

الأصلية ، ولكن ليس معنى هذا أننا نرفضها جملة وتفصيلا . إنما نرفض منها كل ما يدل على الثبات والتمايز المطلق . فـ « الحضارة » فى حركة مستمرة ، إما إلى الأمام وإما إلى الوراء ، وفى تفاعل مستمر مع غيرها من الحضارات ، ليست هناك حضارة منفعلة على طول الخط ، ولا فاعلة على طول الخط ، مهما تكن قوة هذه أو ضعف تلك . ولكن هناك ، فى كل حضارة مهمة ، لحظات إبداع وامتداد ، ولحظات جمود وانكماش ، وربما كانت فترة جمود طويلة إيذانا ببعث حضارة قديمة ، أو انبثاق حضارة جديدة من حضارة قديمة ، سمه ما شئت ، ولعل لقانون « التحدى والاستجابة » دورا فى هذا ، بشرط أن يضاف إليه قانون التأثير المتبادل بين الحضارة القوية والحضارة الضعيفة .

ولذلك نرفض أيضا زعم برنارد لويس : « عندما تتصادم حضارتان ، تسود إحداهما وتتحطم الأخرى » ، بل نرى فيه افتئاتا على التاريخ . ولعلنا نرى فى هذا القول أيضا سمة خاصة بالفكر اليهودى ، لأننا نراها عند غيره من المفكرين اليهود : أعنى اعتماد مبدأ التناقض ، أو صراع الأضداد ، الذى لا يحل إلا بتغلب أحد الضدين ، دون مبدأ التكامل ، الذى ينتهى باتحادهما .

ونتمنى ، نحن العرب ، أو نحن المسلمين ، ألا ينظر إلينا الغربيون على أننا جماعة مغلقة على نفسها ، لها طرقها فى الحياة التى لا يمكن أن تستفيد ، بمحض إرادتها ، من طرق الغرب . إننا نستطيع أن نقول عنهم أيضا ـ أعنى عن علمائهم الذين يدرسون ثقافتنا ـ إن تفكيرهم يظل مع ذلك محصورا فى أنفسهم . فهم ينسون أننا نحن أيضا نفكر . هم يتصورون أن أمامنا خيارين اثنين لا ثالث لهما : إما أن نبقى على نظمنا الموروثة لانمسها بأى تعديل كيلا نحطمها ، وقد فات أوان هذا الخيار منذ انهيار الدولة العثمانية ، وإما أن نأخذ نظمهم كما هى ، وبدون تلكؤ ، وينسون أن حركة البعث الإسلامى ، بجميع فروعها ، كانت ثورة على تلك

النظم العثمانية ، وأنها كانت واعية برسالة الإسلام العالمية ، الخالدة ، التى أنتجت حضارة عظيمة عمَّ البشرية نورها ، بقدر وعيها بتفوق الغرب وتأخر المسلمين فى الوقت الحاضر .

لعل الغربيين ـ حتى علماءهم المستشرقين ـ معذورون حين ينسون هذا كله ، لأنهم يرون فكرنا حائرا متخبطا فى هذه الأيام ، كحيرتنا وتخبطنا فى الكثير من أمور حياتنا .

ولكن هل نعذر ـ مثلا ـ إخواننا العرب ، الذين يكتبون عن « الإنسان العربى » كما لو كان صنفا مختلفا عن غيره من البشر ؟ ألا يخشون من هذه الصيغة الغريبة أن تذكر الناس بإنسان الغابة ، أو إنسان النيندرتال ؟

كيف يفهمون التاريخ ؟

كان المؤرخون الأوربيون فى القرن الماضى يعتقدون مخلصين أن مهمتهم هى تصوير الماضى على ما كان عليه ، تلك الثقة المطلقة في قدرة العقل البشرى على أن يعكس « الحقيقة والواقع » زالت بالتدريج ، وأصبح من المسلم به أننا لا نستطيع أن نرى من ذلك الماضى الذى يعج بآماله وأحلامه ومشكلاته ومآسيه سوى جانب صغير جدا ، كما ننظر إلى بهو فسيح ممتد من ثقب مفتاح ، ولاشك فى أن هذه النظرة المختلفة إلى حدود المعرفة التاريخية كانت مصاحبة لنظرة جديدة إلى موضوع علم التاريخ ، فلم يعد هذا العلم مقصورا على الأحداث الكبرى من حروب ومعاهدات وقيام دولة وسقوط دولة الخ .. بل أصبح يعنى فى المحل الأول بأحوال المجتمعات البشرية فى شتى جوانبها المادية والروحية ، فتاريخ الإنسان على هذه الأرض لا يختصره تاريخ الدول .

وهنا لابد من وقفة قصيرة نعرج فيها على كتب التاريخ عندنا ـ ولو على سبيل الاستطراد ، فقد عدلنا عن الطريقة العربية القديمة فى التأليف التاريخى ، طريقة سرد الأحداث مرتبة على حسب السنين ، واقتبسنا الطريقة الأوربية الحديثة فى ترتيب الموضوعات التاريخية على حسب الدول ، ونسينا أن لدينا كنزا هائلا من المادة التاريخية يتمثل فى كتب الطبقات ، التى تكاد

تغطي كل جوانب الحياة الاجتماعية في مختلف عصور الحضارة العربية الإسلامية ، ولو أن نهضتنا كانت نهضة حقيقية ولم تكن مجرد رد فعل لهجوم الحضارة الأوربية لسبقنا القوم الى التأليف في التاريخ الاجتماعى الشامل ، ولكن الواقع هو أننا مازلنا متأخرين عنهم فى هذا المضمار بمراحل كثيرة ، لأننا لابد من أن نتلقى عنهم كل شيء ، حتى تراثنا الحضارى الأصيل ، ثم لا نتلقى ما نتلقاه عنهم إلا متأخرين !

ونعود إلى مفهوم التاريخ عندهم فى الوقت الحاضر ، إنهم يعلمون الآن شيئا واحدا يقينيا فيما يتعلق بالتاريخ ، وهو أنه مهما يكتشف من الآثار ، والوثائق ، واليوميات ، ومهما ينشر من مذكرات الساسة والقادة الذين رحلوا عن الدنيا ، وتركوا هذه الكلمات وراءهم تعلن ما أشفقوا أن يعلنوه وهم أحياء ، فسيظل القسم الأكبر من معالم الماضى مغلفا بضباب النسيان ، إن لم يكن لأى سبب آخر فلأن هذه الوثائق والآثار الخ .. هى من صنع فئة صغيرة من المجتمع ، كانت تملك وسائل التسجيل ، وهى ـ لا محالة ـ إنما تسجل الأمور التى تعنيها ، وتسجلها من وجهة نظرها .

لذلك شبه بعضهم التاريخ بلعبة القطع الخشبية التى فقد الكثير من أجزائها ، أنت تعرف هذه اللعبة التى تمثل لوحة كاملة قد قطعت قطعا صغيرة غير منتظمة الأشكال ، وعلى الطفل أن يضم بعضها إلى بعض ، كل قطعة فى مكانها الصحيح ، لتكتمل الصورة ، فإذا نقصت بعض هذه القطع ، واستطاع الطفل أن يضع القطع الباقية فى أمكنتها الصحيحة ، فستبقى كثير من أجزاء الصورة غير ممثلة فى اللوحة ، وعلى الطفل أن يملأها بخياله .

هذا التشبيه فى نظرى لا يصور الحقيقة تماما ، وأقرب منه إلى الدقة أن نتخيل صندوقا واحدا جمع فيه عدد لا بأس به من هذه اللعب الخشبية التى فقد بعض أجزائها ، هكذا يمكنك أن تتمثل

حيرة الطفل حين يحاول أن يستخرج من هذا الركام صورة واحدة منتظمة ، وهى بعينها حيرة المؤرخ أمام المادة التى استطاع جمعها من الوقائع التاريخية ، فهذه المادة أكثر مما يجب وأقل مما يجب فى الوقت نفسه ، أكثر مما يجب لأنها تتطلب مجهودا كبيرا لفرزها وتصنيفها ، وأقل مما يجب لأن القطع أو الأجزاء الغائبة من أى صورة بعينها تجعل إعادة تكوين الصورة عملية شبه مستحيلة ، أنها أشبه بلعبة كلمات متقاطعة لم يساعدك واضعها بتسويد بعض المربعات ، ولابد للمؤرخ إذن من أن يعتمد على فكره وخياله معا لاخراج صورة متكاملة بنفى كثير من الأجزاء التى لا تتلاءم ، وافتراض أجزاء أخرى ليس لها وجود فى الواقع ، ولا دليل على وجودها إلا كونها ضرورية لإكمال الصورة .

ومؤدى ذلك أن التاريخ هو - إلى حد كبير - من صنع المؤرخين ، ولا سبيل إلى غير ذلك ، مادامت وقائع التاريخ حشدا من الحوادث التى لا ارتباط بينها ولا معنى لها حتى يعطيها المشاهد رابطة ومعنى . وهكذا يبتعد التاريخ عن دائرة العلم المحقق ، التى طمع أن ينتمى إليها فى يوم من الأيام ، ويقترب بصورة خطرة من دائرة الشعر أو الفن .

ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تكون مثيرة للدهشة ولا للأسف عند أصحاب الطموح العلمى ، فليس التاريخ وحده هو الذى يقف هذا الموقف ، بل إن التداخل بين العلم والفن ، أو العلم والشعر ، أصبح سمة من سمات العصر حتى فى اللغة التى يستعملها كل منهما ، وهى فى تقديرى سمة إيجابية ، إذ إنها دليل على أن الفكر الإنسانى يسير نحو وحدة المعرفة مرة أخرى ، ولكن على مستوى أرقى من المستوى الأسطورى القديم .

وبالنسبة إلى علم التاريخ بالذات ، لم يخسر هذا العلم شيئا سوى براءته السابقة ، وما كانت بالبراءة البريئة ولكنها كانت براءة

ملؤها الغرور . كان المؤرخون الأوربيون حتى أوائل القرن العشرين يرتكبون كل أنواع التحيز وهم يتوهمون أو يوهمون قراءهم أنهم لا يقدمون إليهم سوى حقائق « موضوعية » ، أما الآن فهم يعترفون بأن المؤرخ يصور فكره ، المستمد من عصره وبيئته ، بقدر ما يصور الماضى الذى يكتب عنه ، أو بعبارة أخرى أن الحكمة القديمة القائلة بأن الماضى يصنع الحاضر ، يجب أن تضاف إليها حكمة مقابلة وهى أن الحاضر يصنع الماضى أيضا ، ولاشك فى أن هذا الاعتراف يجعل المؤرخ أكثر مراقبة لنفسه وأقل استعدادا للشطط فى أحكامه ، كما يجعل قراءه أكثر تيقظا وأعمق فهما لما يقرأون .

فلا خطأ أفدح من أن يقرأ القارىء - غير كلام الله القديم - فلا يتجاوز النص إلى الفكر الإنسانى الذى يتخلق ويتكشف من خلال هذا النص .. لقد كان النقاد الرومنسيون يقولون إنهم يبحثون عن الإنسان من خلال النص . ولكن ليس هذا هو ما نعنيه الآن ، فنحن لانتحدث عن قيمة القصيدة ولكننا نريد تصحيح عملية الفهم ذاتها ، سواء أكان الموضوع نصا أدبيا أم غير أدبى ، فالفهم الدقيق للنص كثيرا ما يتطلب تجاوز النص ذاته ، تجاوز نتوءاته وفجواته والتفافاته والتواءاته وسائر ما نسميه « اسلوب » الكاتب - بما نعده مزايا أو عيوبا فيه - لكى نصل إلى الفكرة الجوهرية فيما يكتب ، ولا يمكن تجاوز الخصائص الأسلوبية إذا لم نتبين حركة الفكر التى وراءها ، هذا على المستوى اللغوى الأقرب ، أما على مستوى الأفكار الكلية - أى على مستوى التفسير والتقييم - فإننا لن نفهم ما يقوله الكاتب حق الفهم حتى نتبين حدوده ، ولن نتبين حدوده حتى نضع أنفسنا مؤقتا فى الزاوية التى ينظر منها إلى موضوعه ، وبديهى أننا نسترد أنفسنا ، أو نعود إلى منظورنا الخاص ، حالما نفرغ من عملية القراءة .

إن القراءة والكتابة كلتيهما تصبحان عملين فارغين من أى

معنى إذا لم تنطويا على تواصل فكرى حقيقى ، والكاتب - ولا سيما المؤرخ - حين يحاول أن يوسع منظوره جهد طاقته يعمل على التخلص من أسر معتقداته وعاداته الفكرية الخاصة ليجعل احتلال هذا المنظور أو الاقتراب منه في استطاعة قارئه . وكذلك القارىء حين يتبنى منظور الكاتب إنما يتخلى مؤقتا عن معتقداته وعاداته الفكرية لكى يفهم أولا كيف يفكر الكاتب ، ثم ربما استطاع أن يصحح بعض أخطاء المنظور عنده هو ، دون أن يتخلى عن رؤيته الخاصة .

ولابد من استطراد آخر هنا ، فبعض أصحابنا يتوهمون أن « شخصية » المؤرخ أو الباحث عموما لا تظهر فى بحثه إلا حين يقول : وأنا أرى كذا ، أو : وعندى كذا ، أو عبارة نحو هاتين ، ولو كانت المسألة تتعلق برأى شخصى للباحث لما كانت لها أدنى قيمة عند غيره ، إن شخصية الباحث لا تظهر إلا فى انتقائه للوقائع المهمة فى نظره ، ثم فى تفسيره لهذه الوقائع ، وهو يحاول ما استطاع أن يبعد تأثير الرأى الشخصى ، ولا يعرضه فى مباهاة طفولية ساذجة ، لأنه يعلم أن القارىء الجاد الواعى لا تهمه الآراء الشخصية .

وفى العلاقة بين الكاتب والقارىء - والكلام لا يزال منصبا على كتّاب التاريخ أكثر من غيرهم - يوجد الاخلاص كما توجد المداورة والخداع ، حتى خداع النفس أحيانا ، فالقارىء لا يستطيع أن يتعاطف مع كاتبه - بتبنى منظور الكاتب - على طول الخط ، وإنما يتعاطف معه ويتبنى منظوره بقدر ما يبذل الكاتب من جهد حقيقى لتوسيع هذا المنظور بحيث لا يكون مناقضا لمنظور القارىء ، وإن لم يكن بالضرورة مطابقا له ، والكاتب عادة يفكر فى قارىء معين ، ينتمى إلى نفس المحيط الثقافى الذى ينتمى إليه الكاتب ، ولذلك يكون التواصل بينهما سهلا ، وهنا يقوم سؤال : لماذا نقرأ أعمال المستشرقين ؟

والجواب : أننا لا نقرؤها لنعرف تاريخنا العربى الإسلامى أو ثقافتنا العربية الإسلامية ، فنحن أقدر منهم على معرفتها من مصادرها الأولى ، ولكننا نقرؤهم لغرضين ، أولهما : أن نتعلم طرق البحث ـ أى طرق التعامل مع الوقائع ، جمعا وتصنيفا وتحليلا وتفسيرا ـ ولاشك فى أنهم أتقنوا هذه الطرق ، بحكم سبقهم الحضارى الحديث ، كما اتقنوا التعامل مع الأشياء المادية ، أما الغرض الثانى : فهو أن نعرف كيف ينظرون إلى حضارتنا فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وهذا الغرض لا يقل أهمية عن الغرض السابق ، مادمنا مشتبكين معهم فى علاقة قديمة ومتطورة .

التاريخ
وشخصية المؤرخ

بانتهاء عصر الاستعمار الصريح المباشر انتهى دور المؤرخين الهواة من رجال الحرب والسياسة أو الدبلوماسية ، الذين مالوا إلى تدعيم تجاربهم العملية فى البلدان المستعمرة بشىء من الاطلاع على تاريخها القديم أو الحديث بوجه خاص ـ أمثال كرومر وجلوب وسايكس وانطونيوس ، وأصبح دور المستشرقين فى تعريف الغرب بمشكلات « الشرق الأوسط » المعاصرة أكثر بروزا ، لعل من أسباب ذلك ـ إلى جانب اختفاء تلك الطوائف من أفقنا ـ أن الهواية لم تعد مقبولة لدى الغرب ، فيما عدا السياسة نفسها ، ولعل من أسبابه أيضا أن المؤرخين المعاصرين ـ من جهتهم ـ أصبحوا يسلمون بأن التاريخ لا يعنى بالماضى وحده ، بل بالعلاقة الحميمة بين الماضى والحاضر ، فإذا كان عمل المؤرخ هو رؤية الماضى من منظور الحاضر ، فينبغى أن يكون أقدر من غيره أيضا على رؤية الحاضر بكل ما يحمله من مخلفات الماضى .

ولكن المشكلة المعروفة ـ أن نرى الأشجار ولا نرى الغابة ـ تنطبق على القرب الزمانى ، مثلما تنطبق على القرب المكانى ، فعندما يعرض المؤرخ لحقبة بعيدة ، تلوح أمامه أعلام بارزة ينتظم حولها المنظر الكلى ، وقائع وأشخاصا أثرت فى مجرى الحوادث

من بعد ، كما خلفت طابعها على العصر نفسه ، أما الحاضر أو الماضى القريب فإنهما يضنّان عليه بمثل هذه الأعلام ، إن التاريخ يمكنه أن يفسر ما وقع فعلا ، لكن لا يمكن أن يتنبأ بما لم يقع بعد . والأحداث التى تقع اليوم ، أو التى وقعت بالأمس القريب . لم يتح لها الوقت الكافى لكى تؤتى ثمارها ، ومن ثم فالحدث المهم يظل مغمورا وسط حشد من الأحداث غير المهمة ، وحين يميز المؤرخ حدثا ما وسط هذه الأحداث ، فإنه يقوم بمغامرة فكرية .

والأدهى أن هذه المغامرة قد لاتكون « فكرية » خالصة ، أعنى أن ميول المؤرخ وانتماءاته يمكن أن تتدخل فى إبرازه لاحداث معينة ، وتفسيره لهذه الأحداث ، ثم تقييمه لها ، ولعل المؤرخ الغربى الذى يكتب عن « الشرق الأوسط » المعاصر أن يكون أكثر تعرضا لمثل هذا الانحراف . فالمؤرخ الغربى لا يكتب من فراغ ولا يقف فى منطقة انعدام الوزن ، إنه يكتب وهو مرتكز على الحضارة الغربية ، وتاريخ « الشرق الأوسط » المعاصر شديد الارتباط بالحضارة الغربية ، إن لم نقل إنها صانعته الأولى . وإذا كنا نحن نحاول أن نعلق كل مشكلاتنا ومصائبنا فى رقبة الاستعمار ، فطبيعى أن يحاول الاستعمار التنصل من كل مسئولية عنها ، وإذا كنا نحن نحاول دائما أن نستمد الدعم الروحى من ماضينا المجيد ، فطبيعى أن يحاول الاستعمار إثبات أن ماضينا لم يكن مجيدا إلى هذه الدرجة ، وقد لا يرضى المؤرخ الغربى عن الاستعمار ، وقد لا ينتدب للدفاع عنه ، ولكنه ـ غالبا ـ سيقدم حسابا ختاميا نجدنا فيه مدينين لا دائنين .

وإذا لم يعجبنا صنيعه هذا فلنرجع إلى ما كان يكتبه المستشرقون السابقون الذين تخرجوا فى مدرسة « التاريخ الموضوعى » وسنجد أن مستشرق اليوم أفضل بكثير ، أعنى أنه أقرب إلى « الموضوعية » من سلفه ، بالرغم من اعترافه بأن الموضوعية الكاملة فى كتابة التاريخ مثال لا يمكن تحقيقه ، هو

أكثر موضوعية لأنه يكتب فى ظل مفهوم آخر للتاريخ ، يسلم بأن لشخصية المؤرخ وتوجهاته دورا فى كتابة التاريخ . هذا المفهوم قائم فى ذهن المؤرخ وفي أذهان قرائه على حد سواء ، ومن ثم فهو يكلف نفسه ، وينتظر منه قراؤه ، أن يقاوم توجهاته الشخصية قدر المستطاع . لقد كان الوهم المسيطر على كتاب التاريخ وقرائه طوال القرن الماضى ، وحتى أوائل هذا القرن ، هو أن « وقائع » التاريخ لا شأن لها بميول المؤرخ ، ومن ثم يمكنه أن يسرد « الوقائع » ثم يصدر حكمه بعد ذلك وهو مطمئن إلى عدالة موقفه ، الآن يعرف كتاب التاريخ وقراؤه أن « موضوعية » الوقائع ليست إلا وهما ، فشروط الوقائع التى يعنى بها التاريخ أن تكون ذات دلالة ، والمؤرخ هو الذى يعطيها هذه الدلالة ، أى أنه يصدر أحكامه من قبل أن « يسجل » الوقائع .

والنقطة المهمة هى علام ترتكز هذه الأحكام ؟ إنها ترتكز بالضرورة على مجموعة من القيم ، وللقيم مستويات مختلفة ، منها ماهو شخصى محض ، يرجع إلى الحب أو الكره ، أو إلى المصلحة المادية ، وهذه لن يحترمها القارىء بالطبع ، ولهذا يحاول الكاتب أن يخفيها ، بينما يحاول خصومه فى الرأى أن يلصقوها به ، ومنها ماهو عرقى ، وهذه لم تعد مقبولة كذلك ، منذ أحرقت العرقية نفسها فى الحرب العالمية الثانية ، ومنها ما هو وطنى ، وهذه لا تزال محتملة إلى حد ما ، يتناسب عكسيا مع مقدار تورط البلد المعين فى حلف من الأحلاف العالمية ، ومنها ما ينتمى إلى هذا المفهوم الجديد نسبيا لدى المؤرخين ، مفهوم « الحضارة » ، وقيم الحضارة الغربية هى القيم التى لا يرى كتاب التاريخ ولا قراؤه فى الغرب أى بأس بتحكيمها فى أحداث التاريخ ومعانى تلك الأحداث . حتى توينبى ، الذى ينزع إلى قيم إنسانية عليا مستمدة من نظرة شاملة إلى الأديان العالمية الكبرى ، يقف فى مرحلة وسط بين هذه القيم وبين قيم الحضارة الغربية .

يقول المؤرخ الانجليزى المعاصر إدوارد هالت كار : « إن المبادىء الأخلاقية التى نطبقها فى التاريخ أو فى حياتنا اليومية تشبه (شيكات) البنوك : فيها شىء مطبوع وشىء يكتب ، فأما المطبوع فيتألف من كلمات مجردة مثل الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية ، هذه عناصر جوهرية ، ولكن (الشيك) يظل بدون قيمة حتى تضيف إليه القسم المكتوب الذى نقرر فيه أى مقدار من الحرية نريد أن نخصص ، ولمن ، أومن الذين نعدهم مساوين لنا ، وإلى أى حد » .

ويعترف كار أن معانى هذه الكلمات المجردة تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ولكن من الواضح أن (الشيكات) التى تحمل هذه الكلمات ، يمكن صرفها من أى (بنك) من البنوك فى منطقة الحضارة الغربية ، ولن يسأل أحد عن معنى محدد لكلمة « حرية » أو « عدالة » الخ ، لأن هناك شبه اتفاق على معانيها ، وان بقيت مبهمة ، وقابلة للمط أحيانا أو التضييق أحيانا أخرى ، لدى الكثيرين ، والمستشرق الذى يكتب لجمهور غربى عن « الشرق الأوسط » المعاصر لن يخرج عن هذه المبادىء ، وإذا كان مثل هذا المستشرق يهوديا وذكيا مثل برنارد لويس فلن يتورط فى دفاع صريح عن الصهيونية ، ولن يتجاهل أن كثيرا من الأوربيين أصبحوا أميل إلى إدانتها ، ولكن سيقدم صورة « للشرق الأوسط » أو على الأصح للعالم العربى الإسلامى المعاصر ، تكاد تخلو من ذكر الصراع العربى الصهيونى ، لأن الصراع العربى الغربى ، وحيرة العرب بين القديم والحديث ، قد حولا النشاط الصهيونى فى المنطقة إلى حالة جزئية لن تضار الصورة العامة بإهمالها أو التقليل من قيمتها ، وسيتكلم عن الصهيونية فقط فى معرض الكلام عن « القومية العربية » على اعتبار أنها نظير لفكرة « قومية يهودية » ظل اليهود أنفسهم يرفضونها مدة طويلة ، ولم يسلموا بها إلا تحت تأثير القوميات

الأوربية التى رفضت استيعابهم ، وسيلمح فى مناسبة ثانية إلى أن هناك صراعات حادة تدور فى الشرق الأوسط ، وأن « واحدا من هذه الصراعات بالذات » يرتبط بأنواع من المصالح وأنواع من التحيز (وهذا ما يجعل مهمة المؤرخ الموضوعى ـ مثله طبعا ! ـ صعبة بوجه خاص) . ثم يفسر هذه المصالح والتحيزات بأن فريقا معينا تهمه أصوات اليهود فى الانتخابات ، وفريقا آخر تهمه العقود والمزايا التجارية . وبما أن الفريق الأول هو الذى يناصر الصهيونية ، فسيحرص على أن يربط ـ بذكاء ومهارة ـ بين كسب أصوات اليهود وبين الديمقراطية الغربية ، أى أنه سيكتب للصهاينة « شيكا » يمكن صرفه من أى بنك أوربى أو أمريكى .

وفى عدة مناسبات أخرى سيطوى قضية « الصهيونية والصراع العربى الاسرائيلى » فى ثنايا قضية أخرى وهى قضية « السامية واللاسامية » فمع أنه يرى أن « السامية » كتصنيف عرقى يجمع بين العرب واليهود ، ليست إلا أسطورة غربية ، فإنه يجمع كل ما يستطيع جمعه من الأدلة على أن أوربا القرن التاسع عشر عرفت من يسميهم « اليهود أنصار الإسلام » ، ويعد على رأسهم السياسى اليهودى الإنجليزى المشهور « دزرائيلى » الذى رأس الوزارة البريطانية ، وكان أيضا أديبا روائيا ، فإن اعتزازه بأصله اليهودى جعله يتعلق بأسطورة السامية تعلقا عاطفيا حتى أنه سمى اليهود « عربا موسويين » أو « عربا يهودا » ويسرد لويس فى قائمة « اليهود أنصار الإسلام » أسماء كل أولئك المستشرقين اليهود الذين عرفوا أوربا بحضارة الإسلام ، متناسيا أن هذا التعريف كثيرا ما اقترن بتجن واضح على الإسلام . وفى مقاله المعنون « الساميون واللاساميون » يعرض بخفة للصراع العربى الإسرائيلى ، فينفى أن يكون سببه « عداء السامية » ، لا لأن العرب « ساميون » كاليهود ، بل لأن أسطورة « السامية » هى

من صنع أوربا ، وليست من صنع العرب ، إنما هو صراع سياسى ، ويتجاوز لويس هذا الصراع السياسى بسرعة ليقول أن الذين يعارضون إسرائيل والصهيونية من الغربيين ويناصرون العرب ، إنما يعبرون بذلك عن الداء الأوربى القديم : داء عداوة اليهود ! .

أهو خداع مقصود ، أم انحراف ناشىء عن الثقافة والبيئة والعلاقات الاجتماعية ؟ دعونا من النيات ، وانظروا إلى النتائج ! !

اليهود فى الاسلام

آخر ما أصدره المستشرق اليهودى البريطانى برنارد لويس ، الذى يعيش ويعمل الآن فى أمريكا ، كتاب عن اليهود فى الإسلام . ظهر هذا الكتاب فى العام الماضى ١٩٨٤ ، ولم يتيسر لى الاطلاع عليه بعد ، ولكن أمامى الآن مقالتين فى كتابه « الاسلام فى التاريخ » نشرتا لأول مرة فى عامى ١٩٧١ و١٩٧٣ ، الأولى بعنوان « الساميون واللاساميون » والثانية بعنوان « قصيدة ضد اليهود » .

أول ما نلاحظه أن اهتمام لويس بهذا الموضوع حديث نسبيا ، فهو مواكب لاهتمامه بتاريخ « الشرق الأوسط » المعاصر . وحتى كتابه « الشرق الأوسط والغرب » ١٩٦٤ لا يولى اهتماما خاصا لمكان اليهود فى المجتمعات الإسلامية ، وإن تحدث ـ بالضرورة ـ عن سياسات الدول العربية تجاه إسرائيل (ولا ينتظر منه بالطبع أن يقدم صورة مشرقة لهذه السياسات) ويمكننا أن نرى فى هذا الاتجاه الجديد لبحث أحوال الأقلية اليهودية داخل المجتمعات الإسلامية ـ أى لموقف الشعوب ـ لا الحكومات ـ الإسلامية من اليهود ـ محاولة لتبرير العداء العنصرى المتعاظم الذى يبديه يهود إسرائيل نحو العرب .

إن برنارد لويس ، فى المقالة الأولى ، معنى بإثبات أن العرب بوجه عام لا يعرفون « اللاسامية » أى عداء اليهود .. لا لأنهم

« ساميون » مثل اليهود ، بل لأن أسطورة « السامية » هى من اختراع الغرب ، غذاها الاعتقاد المسيحي بأن اليهود مسئولون عن قتل المسيح ، ويستدل على ذلك بأن حالات عداء اليهود التى ظهرت فعلاً فى الشرق الأوسط ظلت حتى وقت قريب (يقصد بالطبع : إلى أن بدأ النشاط الصهيونى فى فلسطين) مسيحية فى منشئها ، ويستشهد بحادثة مشهورة جرت فى دمشق سنة ١٨٤٠ ، حين أتهم عدد من الرهبان الفرنسيسكان وأيدهم القنصل الفرنسى ، يهود المدينة بقتل أحد زملائهم .

ولكن لويس لايريد فى الوقت نفسه أن ينسب إلى العرب المسلمين فضيلة التسامح الدينى ، ولذلك يسارع إلى القول : « وهذا لا يعنى أن اليهود كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامى التقليدى فى تلك المدينة الفاضلة من الأديان المجتمعة ، التى اخترعها صناع الأساطير المحدثون ، لقد كان اليهود ، ومثلهم المسيحيون ، مواطنين من الدرجة الثانية نظريا وعمليا ، على أن حالتهم لم تكن سيئة إلى الدرجة التى تدل عليها ايحاءات هذا المصطلح الحديث . فقد كانوا يتمتعون بحقوق محدودة ولكنها أساسية ، على اعتبار أنهم أعضاء فى طائفة مشمولة بالحماية ، وكانت هذه الحقوق مرعية فى معظم الأحيان . وفى مقابل ذلك كان عليهم أن يدينوا بالولاء للدولة ، وكانوا يقدمون هذا الولاء فعلا ، كما كان عليهم أن يتحملوا أعباء معينة ، ولم تكن هذه الأعباء ثقيلة جدا فى العادة ، وكان ينتظر منهم ألا يتجاوزوا حدودهم . وكانت انفجارات ضد اليهود والمسيحيين تحدث دائما ـ ونادرا ما كانت تحدث ـ نتيجة للشعور بأنهم قد تجاوزوا تلك الحدود ، وهو ما أصبح ظاهرا فى السنوات الأخيرة » .

إنها وسيلة معروفة لإرباك الخصم ، أن تنسب إليه ما لا يدعيه ، تمهيدا لنفى هذه الدعوى الموهومة ، فالمدينة الفاضلة لم توجد قط فى الواقع ، إنما توجد فى خيال الشعراء والفلاسفة ، وإثبات

التسامح الديني أو العنصري لنظام ما لا ينفي أن هناك حالات شاذة أو « نادرة » ـ كما يعترف لويس ـ لقيت فيها بعض الأقليات الدينية أو العنصرية متاعب يسيرة أو خطيرة ، وكون هذه الحالات شاذة أو نادرة هو نفسه دليل على أن ثمة أسبابا أدت إليها ، غير حقيقة كونهم أقليات ، والمؤرخون المعاصرون يعرفون جيدا صعوبة التعبير عن مفاهيم حضارة معينة باصطلاحات حضارة أخرى ، فالدولة الإسلامية لم تعرف مواطنين من الدرجة الأولى وآخرين من الدرجة الثانية لأنها لم تكن دولة قومية بل نظاما عالميا ، من ارتضاه ودخل فيه كان عضوا كامل العضوية في المجتمع الإسلامي ، ومن لم يقبله وآثر أن يعيش ويعمل بين جماعة المسلمين كان له ذلك ، ولكنه يعد أجنبيا عن هذا المجتمع ، وإن كان « المكان » الذي يعيش فيه هو « وطنه » . فلو أريد قياس هذا النظام على نظام الدولة القومية لكان أقرب إلى الصحة أن يقال إن الأقليات الدينية كانت أشبه بالجاليات الأجنبية ، تتمتع بكل ما يتمتع به « المواطنون » ولكنها لا تشارك في صنع سياسة البلد الذي تعيش فيه . ومع ذلك يظل القياس غير صحيح تماما ، لأن نظام الدولة الإسلامية لم يلغ معنى « الوطنية » ولا حقوق غير المسلم في وطنه ، فلم تجل الأقليات الدينية أو العرقية عن أوطانها ، مع أن هذا الإجلاء قد حدث لبعض القبائل العربية المشاكسة ، كما أجلي قسم من بني تميم إلى خراسان في عهد الدولة الأموية ، وكما أجلي بنو هلال إلى شمال افريقيا في عهد الدولة الفاطمية .

ولعل المؤرخ المنصف لو تتبع أحوال الأقليات الدينية بالذات ، تحت الحكم الإسلامي ، لوجد أنها كانت أحسن حالا ، بوجه عام ، من الأغلبية المسلمة ، فقد تركت لها تنظيماتها الخاصة ، ولم تكن نتيجة ذلك أنها حافظت على تماسكها فحسب ، بل أنها ازدادت ثراء وقوة أيضا ، وطبيعي أن يحفظ ذلك عامة المسلمين ، وخاصة حين تستولي أقلية دينية ما على السلطان السياسي أيضا .

ويحتاج المؤرخ المنصف أيضا إلى أن يقارن بين معاناة الأقليات الدينية ومعاناة الأغلبية المسلمة أثناء فترات الاضطراب السياسى ، أما المؤرخ المغرض فإنه سيصنع شيئا شبيها بصنيع لويس فى مقاله الآخر « قصيدة ضد اليهود » .

القصيدة المشار إليها هى قصيدة أبى اسحق الألبيرى التى وجهها إلى شعب صنهاجة وسيده باديس بن حيوس ، وكانوا قد تسلطوا على غرناطة فى عهد ملوك الطوائف ، محرضا إياهم على قتل الوزير يوسف بن النغريلة وقومه اليهود . بل أن القصيدة تضمنت نقدا عنيفا للأمير الصنهاجى نفسه ، وكان أبو اسحق كما تدل المصادر رجلا زاهدا لا يتهيب أن يخاصم السلطان فى حق ، ولذلك نفاه باديس إلى البيرة .

يقول أبوإسحق :

الا قل لصنهاجة أجمعين
بدور الندى وأسود العرين
لقد زل سيدكم زلة
تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا
ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا
وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى
فحان الهلاك وما يشعرون

وقد تحدثت كتب التاريخ فعلا عن أن العامة ثاروا باليهود فى غرناطة وأوقعوا فيهم مقتلة عظيمة .. وذهبت بعض المصادر إلى أن قصيدة أبى إسحاق كانت السبب المباشر فى هذا الحادث .

ولو أن هذه المجزرة ، التى وقعت ليهود غرناطة فى عهد أمير

سيىء التدبير من ملوك الطوائف ، تكرر أمثالها فى تاريخ الأندلس الإسلامية ، أو لو أن ذاك العصر خلا من مذابح مماثلة لها أو أفظع منها وقعت للمسلمين على أيدى أعدائهم الأسبان أحيانا ، وعلى أيدى بعضهم البعض أحيانا أخرى ، لجاز للمؤرخ أن يستخلص منها الدلالة التى يريدها ، وهى نفس الحكم الذى ألقاه فى المقال السابق بدون دليل . فالآن وقد واتاه الدليل ، فإنه يستطيع أن يقرره ، بنفس الألفاظ تقريبا ، ولكن بمزيد من التأكيد !

لاشك فى أن وضع اليهود والمسيحيين تحت الحكم الإسلامى التقليدى كان بعيدا عن تلك المدينة الفاضلة من الأديان المجتمعة ، التى يتخيلها الرومنتيكيون والمدافعون عن العرب فى العصر الحديث .

ولكى يقتنع قراؤه بأنه لايزال ذلك المؤرخ « الموضوعى » المحايد ، يردف هذا الحكم بقوله :

« ولكن هذا الوضع سمح لهم بالبقاء أحياء ، وأحيانا بأن ينعموا بحياة مزدهرة ، إن عبارة (مواطن من الدرجة الثانية) لهاوقع خشن وكريه على الآذان الحديثة ، ولكن المواطنة من الدرجة الثانية ، إذا كانت راسخة الجذور فى التقاليد ، مرعية بالقانون والعرف ، نافذة فى الواقع العملى ، فهى أفضل من مواطنة من الدرجة الأولى على الورق فقط » .

وهكذا يجرد عبارة « مواطن من الدرجة الثانية » من التحفظ الذى ساقه فى المقال الأول ، وكأنها أصبحت قضية مسلمة ، ثم يضيف شاكيا ـ تلك الشكوى التى لاتزال الصهيونية تستغلها لتبتز ما تريد ابتزازه من الغرب ، وكأنما اليهود ـ لا العرب ـ هم الضحايا الذين يجب أن يكفر الغرب عن خطاياه نحوهم :

« إن المواطن في ديمقراطية حرة قد يأنف من وضع الذمى » ، ولكن كثيرا من الأقليات في عالم اليوم قد يتمنون هذا الوضع ، بما يتبعه من استقلال طائفى ، وحقوق معترف بها ، وإن تكن محدودة »

ولاشك في أن برنارد لويس ، وهو ليس مجرد مؤرخ ، ولكنه أيضا كاتب بارع ، قد أبدى مزيدا من هذه البراعة في كتابه الجديد عن « اليهود في الإسلام » .

بين التاريخ والسياسة

وليم بولك مستشرق أمريكى معاصر ، جاب شبه جزيرة العرب على ظهور الجمال حتى يتصور ـ على الطبيعة ـ الرحلة التى وصفها لبيد في معلقته قبل أن يقدم أحدث ترجمة إنجليزية لهذ المعلقة .

لم يكن إلا عام أو عامان بعد أن فرغ وليم بولك من معلقة لبيد حتى استقال من عمله فى جامعة شيكاغو وقدم إلى القاهرة حيث أنشأ مؤسسة استشارية متخصصة فى شئون أوربا والشرق الأوسط ، كما تقول النبذة التى ذيل بها كتابه « السلام المراوغ : الشرق الأوسط فى القرن العشرين » وهو موضوع حديثنا اليوم ، وقد صدر سنة ١٩٧٩ عن دار نشر لندنية ، بينما كان صاحبه معتكفا فى قرية من قرى اليونان ، بعيدا عن أمريكا وعن الشرق الأوسط ، بعيدا عن الجامعة وعن السياسة وعن الأعمال ..

بعيدا أيضا عن تلك الصورة التقليدية التى يحتفظ بها كل إنسان ولد ونشأ فى حضارة الغرب عن الإنسان العربى ، ذلك المخلوق الألفى الذى لم يتغير قط ، لأنه لا يعرف قيمة الحركة ، لأن الحركة لا قيمة لها فى حياته ، فكل ما يبدو عليه من تغير فإنه لا يخرج عن أحد أمرين : إما اندفاع وقتى أهوج ، يعود بعده إلى ما كان عليه ـ وأما تغيير سطحى تفرضه عليه قوة خارجية ، ويزول بزوالها ، لم تكن معه إلا دراساته التاريخية ، وعدد من الوثائق المهمة التى تبدأ

بوعد بلفور وتنتهى باتفاق كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل ، ثم تجاربه أثناء عمله الدبلوماسى الذى لم يدم طويلا ، والذى كان حافلا بالإحباطات كما يبدو .

يقول فى المقدمة :

« لقد كتبت هذا الكتاب كمؤرخ أولا ، ولكننى أيضا كنت طوال السنين الثلاثين الماضية أراقب وأشارك فى كثير من الأحداث التى يتناولها ، عرفت عددا من الأطراف الرئيسية فى هذه الأحداث ، وسمح لى بالاقتراب من تفكير عدد من الحكومات وأهم من ذلك أنى أتيحت لى الفرصة لأن أتحدث مع أناس من مختلف الشعوب ، وأعيش بينهم ، وأقرأ أدبهم ، وهذه تجارب قيمة فى حد ذاتها ، ولم تكن وسائل لتحقيق غرض ما ـ بالتأكيد لم يكن القصد منها أن أخرج بهذا الكتاب ، ولكننى أستندت إليها للقيام بتنبؤات وتفسيرات دقيقة لأحداث الشرق الأوسط مثل حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ، وفشل عدد من مبادرات الصلح ، وأهم من ذلك أنى استندت إليها فى اقتراح وسائل للسعى نحو السلام ، وكم من مرة رأيت فرصة تضيع نتيجة لسوء فهم القضايا والمشكلات فى أغلب الأحيان ، فأنا هنا أحاول إبراز الوقائع والتفسيرات الجوهرية التى يمكن أن تساعدنا على تحقيق السلام » .

رغم النبرة العلمية التى صيغت بها هذه العبارات أجد فيها رنة من الأسى ، وخاصة حين أتذكر أن المؤلف يكتبها وهو « متقاعد » فى سن مبكرة جدا ، تذكرنى هذه البداية بكتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ وقد كتبه هو أيضا حين تقاعد ، مسجلا ذكرياته الشخصية عن الحروب الصليبية ، وعن أواخر أيام الحكم الفاطمى فى مصر ، وكانت هذه الأخيرة بالذات شديدة المرارة والإيلام ،

وإن رواها الشاعر الفارس الأديب العربى بهدوء الرجل المؤمن ، الذى يعلم أن حكمة الله وقدرته فوق تدبير المخلوقين ، ولكن أسامة كان يكتب مذكراته بعد أن شهد بزوغ نجم صلاح الدين ، ولم يكن يكتب كمؤرخ ، أما بولك فإنه يكتب عن فترة شديدة القلق والاضطراب فى حياة العالم العربى ، اشتبهت فيها السبل وتناقضت الحلول . وذكرياته الشخصية لا تظهر فى كتابه ظهورا صريحا إلا حين يشير إلى حادثة معينة وهى قيامه بدور الوسيط بين إسرائيل ومصر لوقف حرب الاستنزاف وبدء محادثات سرية بينهما ، وجدير بالذكر أنه يثبت المسعى الاسرائيلى والموافقة المصرية المبدئية فى متن الكتاب ، ولا يصرح بأنه كان هو المبعوث الخاص من قبل الحكومة الاسرائيلية إلا فى هامش صغير (وهو الهامش الوحيد فى الكتاب كله) على اعتبار أنه الشاهد الوحيد على صحة هذه الواقعة .

الكتاب إذن مؤلف تاريخى ، وليس مؤلفا سياسيا ، وقد يكون الفرق بين هذين النوعين ، دقيقا كالشعرة ، حين يكون الموضوع فترة حرجة فى حياة الأمم ، فترة تظل فيها القضايا والمشكلات التى أثيرت منذ مائة عام بلا حل حتى الوقت الحاضر ، ولكن بولك كمؤرخ ودبلوماسى - يؤمن بالحكمة القائلة إن الشعوب التى تهمل ماضيها تجد نفسها مسوقة إلى تكراره ، وكمستعرب عاش فى الشرق الأوسط واختلط بأهله - يعرف أن هذه المنطقة من العالم تمثل متحفا هائلا لحضارات تمتد إلى سبعة آلاف سنة ، وأن هذه الحضارات قد ترسبت فى اللاوعى الجماعى لسكانها ، أشبه ما تكون بالطبقات الجيولوجية .

ومن ثم جاء الكتاب تذكرة لكل من شاركوا فى صنع التاريخ الحديث لهذه المنطقة ، ومن يشاركون الآن فى صنع مستقبلها : تذكرة للأوربيين الذين حاولوا فى عصر الاستعمار سلخ شعوب هذه المنطقة عن ماضيها ، تذكرة للامريكيين الذين ورثوا تركة

الاستعمار الأوربى وارتكزت سياستهم فى عصر الحرب الباردة على إبعاد المنطقة عن خطر النفوذ السوفييتى ، تذكرة للاسرائيليين الذين استغلوا عطف الشعوب والحكومات فى أوربا وأمريكا وشعورها بالذنب أثناء الحرب العالمية الثانية وعلى أثرها ، فادخلوا فى روع القوم أن الصهيونية حركة قومية يهودية كسائر الحركات القومية التى عرفت فى العالم الغربى ، ولكن وجه الصهيونية القبيح لم يلبث أن ظهر كنازية جديدة ـ تذكرة للساسة الأمريكيين الذين قصدهم المؤلف ولاشك بإشارته إلى سوء فهم القضايا والمشكلات ـ تذكرة للعرب أولا وأخيرا ، أصحاب الأرض الذين كانت مشكلتهم الأساسية هى أن دول الغرب قررت أن هذه الأرض أهم من أن تترك لأصحابها ، والذين لايزالون مضطربين بين متغيرات الحاضر وتراث الماضى الغريب والبعيد .

كل هؤلاء ينظر إليهم وليم بولك من معتزله اليونانى بحياد العالم المنصف ولكن الحياد العلمى لا ينفى أن له منظورا عقليا واضحا ومحددا ، ربما كان هذا المنظور (وهو لا يعرض قط بصراحة ، فهو أشبه بالمسلمات لدى أى مؤلف أمريكى) أهم شىء يجب علينا نحن العرب أن نستخلصه من الكتاب . إنه المنظور العملى (البرجمانى) . فقد تعودنا أن نرفع شعار « السلام القائم على العدل » وهذه لغة غريبة على السياسة الدولية ، التى يسيطر عليها الفكر الغربى ، الفكر الغربى يفهم السلام لأنه نقيض الحرب ، والحرب تخرب الممتلكات وتقضى على الأرواح ، ولذلك لا ينبغى اللجوء إليها فى الأحوال العادية ، ولكنها يمكن أن تصبح ضرورية إذا كانت هناك قوة معادية (منافسة) تهدد مصالحنا ، ولكن العدالة ... ؟ ما معنى العدالة بالضبط ؟ .. إن القوى يأكل الضعيف ـ هذه هى عدالة الطبيعة ، الذئب يفترس الشاة والأسد يصرع الثور ، والدول القوية تفرض سيطرتها على الشعوب الضعيفة وتكون إمبراطوريات ، هذه هى أخلاق الطبيعة ويجب ألا

تقشعر أبداننا إذا اضطرنا الخصم بعناده إلى أن نثبت قوتنا وحقنا فى السيطرة عليه بسفك دمه .

« الظلم » فى نظر السياسة الدولية لا يكون ظلما إلا إذا رفضه المظلوم ، هنا تصبح المشكلة العملية التى يخلقها لك سببا للعدول عن الإجراء « الظالم » وسلوك طريق آخر ، معنى ذلك أنه ليس هناك ظلم ولا عدالة ، هناك فقط إجراء ناجح وإجراء غير ناجح .

شنق الفلاحين فى ساحة دنشواى كان إجراء خاطئا لأنه أثار الشعب المصرى الوديع المسالم ، بدون مسوغ قوى دعا إلى هذا الإجراء ، وقنبلتا نجازاكى وهيروشيما كانتا إجراء سليما لأنه وضع نهاية سريعة للحرب العالمية الثانية !

يخيل إلىّ أننا قد يمكننا أن نكتب أعظم الكتب ، ونلقى أبلغ الخطب بلغة إنجليزية تزرى بأعظم بلغائهم ، دون أن تهتز لأحدهم شعرة ، أو ينبض فى أحدهم عرق ، وما ذلك إلا لأننا نتكلم فى الحقيقة لغة غير لغتهم .

أما بولك فإنه مؤرخ أمريكى يكتب بلغة يفهمها الأمريكيون وسائر أهل الغرب ، لا أذكر أنى وقعت على كلمة « العدالة » مرة واحدة فى كتابه هذا . موقفه المعلن هو نفس الموقف العربى ، أو موقف من يسمون « بالمعتدلين » من العرب ، وهو وجوب قيام دولة عربية فلسطينية فى فلسطين ، وهو موقف مازالت الولايات المتحدة الأمريكية ترفضه انحيازا إلى جانب إسرائيل ، بينما تؤيده بعض الدول الغربية الأخرى تأييدا فاترا .

لقد استرعى نظرى خطأ ، يمكن أن يكون سهوا ، ويمكن أن يكون مدسوسا على نص الكاتب ، وهو قوله (ص ١٧٩) إنه لا يمكن عمليا زحزحة إسرائيل عن حدود سبتمبر ١٩٦٧ ، فلاشك فى

أنه يقصد حدود ٤ يونيه ١٩٦٧ لأنه يوصى فى الصفحة نفسها بقيام دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة . ولكن الذى يعنينى أكثر من ذلك هو أن حجته القوية لتأييد دعوته هى أن الفلسطينيين لن يسكتوا على ضياع وطنهم ، ولابد أن يلجأوا إلى حرب العصابات ، وإلى الإرهاب .

إسقاط الشعب الفلسطينى من حساب الدول الغربية ، بل اسقاط الشعوب العربية جميعها من حساب هذه الدول ـ تلك هى « الغلطة » السياسية الكبرى التى أدت إلى العجز عن تحقيق السلام فى هذه المنطقة من العالم ، ولكنها غلطة تمتد جذورها إلى بدايات عصر الاستعمار . ومن الوثائق الحكومية المهمة التى أبرزها بولك مذكرة للورد بلفور (صاحب الوعد المشئوم) بتاريخ ١١ أغسطس ١٩١٩ (ص ٤٩ ـ ٥٠) يصرح فيها بأن الدول الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية ، وليس فى نيتها أن تستشير سكان فلسطين ! ولأن سكان فلسطين أثبتوا أنهم موجودون ، لهذا السبب وحده كان الغلط !

حقائق وأساطير فى « الشرق الأوسط »

يقول المستعرب الأمريكى وليم بولك فى مقدمة كتابه « السلام المراوغ : الشرق الأوسط فى القرن العشرين » : لقد تناولت أحداث التاريخ القريب حسب تسلسلها الزمنى غالبا ، ولكننى حاولت أن أبرز داخل هذا التسلسل عددا من الموضوعات الرئيسية ، وأهمها اثنان : الكفاح فى سبيل الاستقلال ـ مع عدم الاعتراف الصريح بأن القومية لاتزال هى أقوى الأفكار السياسية وأكثرها شيوعا فى عصرنا هذا فى الشرق الأوسط مثلما هى الحال فى افريقيا وآسيا ـ ثم موضوع نمو المقدرة » .

ولابد لنا من أن نترك موضوع المقدرة لمناسبة أخرى ، كى نفرغ لمناقشة مايقوله بولك وبعض المستشرقين الآخرين عن ذلك الموضوع الغامض والشائك ، موضوع « القومية » فى الشرق الأوسط . وقد يستنكر بعض الناس هذين الوصفين للقومية . فهى عندهم واضحة كل الوضوح ، لايقبلون منك إلا أن تكون معها أو عليها ، ومن ثم فالدوران حولها بحجة انها غامضة أو شائكة ليس إلا حيلة يلجأ اليها الضعفاء والمتشككون .

ولو كنا نكتب مقالا سياسيا لترددنا ألف مرة قبل أن نطرق هذا الموضوع ولكننا نحاول أن نلم بما يقوله بعض المستشرقين عن عالمنا العربى الحديث ، وهم قوم لايعيشون فى عالمنا العربى

هذا ، وإن نزلوه فى الحين بعد الحين ، فهم يعرفونه بآثاره ، اى انه عندهم موضوع من موضوعات الجغرافيا أو التاريخ ، ولكن هذا ليس كل شىء . فهم يجمعون بين موقفين يصعب اجتماعهما فى العادة : موقف المراقب الخارجى غير المنغمس فى الأحداث ، غير المتأثر بها ، وموقف الشريك الفعال ، عن طريق حكوماتهم التى تتخذهم خبراء ومستشارين ، والموقفان معا يحتمان علينا أن نعرف كيف ينظرون إلى تاريخنا الحديث والمعاصر ، إذا أردنا أن نؤثر - من بعد - فى نظرتهم إلى هذا التاريخ . ولاتنس أن مواقفهم ونظراتهم تتسرب إلينا كل يوم عن طريق الأنباء والتعليقات ، فلا تلبث طويلا حتى نرددها معهم ، وبذلك تصبح « أمرا واقعا فكريا » يحتل مكانه بجانب الأمر الواقع المادى ، والأفكار الغريبة حين تنفذ إلى جسم الحضارة مزقا وشظايا لاتلبث طويلا حتى تفتك به وترديه ، أفليس الأولى بنا أن نبحث عن هذه الأفكار مكتملة صحيحة ، حتى نواجهها بفكر صحيح ؟

ومع اننا نميز دائما بين الاستشراق الذى يتحلى بشىء من الأمانة العلمية قل أو كثر ، وبين الدعاية التى تسيطر عليها أجهزة لاتقيم وزنا لشىء سوى المصالح المادية للجهات التى تمولها أو تشرف عليها ، فإن الحدود غير فاصلة بين هذه وذاك ، وأوضح مثل على ذلك عبارة « الشرق الأوسط » نفسها ، فقد استخدمت أولا كإصطلاح جغرافى وعسكرى ، ثم غلب عليها معنى حضارى بحيث ارتبطت بالحضارات القديمة من ناحية ، وبالإسلام من ناحية أخرى ، أما فى الوقت الحاضر فارتباطاتها السياسية ربما كانت أغلب عليها من أى شىء آخر ، بما أنها أصبحت علما على بؤرة مهمة من بؤرات الصراع الإقليمى والدولى ، والمستشرقون يستخدمونها فى الوقت الحاضر كما يستخدمها غيرهم ، فيساعدون على خلط هذه المعانى بعضها ببعض ، ويشاركون فى إخفاء حقيقة الصراع القائم فى « الشرق الأوسط » هذا ، جعله صراعا بين « قوميتين » يضمهما هذا الشرق ، وليس ، كما هو فى الواقع ،

حلقة جديدة من الصراع العربى ضد الاستعمار الغربى ، الذى اتخذ فى مرحلته الأخيرة شكل استعمار استيطانى ، شبيه بالاستعمار الفرنسى للساحل الجزائرى .

ولكن من الحق أن يقال إن المستشرقين ليسوا سواء فى معالجتهم لهذا الموضوع ، أما برنارد لويس فهو يهودى شديد التعاطف مع قومه اليهود ، شديد المرارة نحو الدول الغربية التى تخلت عنهم اثناء محنتهم فى ألمانيا النازية ، ومن ثم فلا بد له أن يكون مؤيدا للصهيونية ولدولة إسرائيل ، ولكن دون أن يضحى « بمصداقيته » كما يقال ، كمؤرخ أكاديمى ، موضوعى ، محايد . ولذلك يكتفى بأن يقول ، حين يذكر الصهيونية ، إن أوروبا هى المسئولة عن قيامها ، لا اليهود ، فإذا تحدث عن دولة إسرائيل لم يذكر شيئا عن تاريخها ، بل تكلم عن موقف العرب وأنصار العرب منها ، وكأن إسرائيل هذه كانت موجودة هناك منذ مئات السنين ، وألبرت جورانى ، المؤرخ البريطانى ، يحاول بعبارات غامضة مبتسرة أن يدفع عن السياسة البريطانية تهمة النفاق والوصولية حين كانت تفاوض اليهود والعرب فى نفس الوقت لتتعهد أخيرا بتمكينهم ـ هؤلاء وهؤلاء ـ من اقامة دولتهم المستقلة على نفس الأرض ، ثم لايعنى كثيرا بالصراع العربى الإسرائيلى ، ولكنه يعنى بالصراع بين الطائفة المارونية (النشيطة المتطورة) وبين (النظم الإقطاعية المتخلفة) فى الجبل وحوله لإقامة دولة لبنان الديمقراطية الحديثة على النسق الغربى .

أما بولك فانه يفرد الفصل الثانى من كتابه « السلام المراوغ » لظهور القومية ، ويخصص معظم صفحات هذا الفصل للحديث عن الصهيونية ، منذ بداياتها إلى أن قررت الانقضاض على فلسطين بمعونة « الحلفاء » ، وتخللت ذلك بضع صفحات عن « العربية » (أو القومية العربية) التى يرى ـ بحق ـ انها لم تكن واضحة المفهوم ولامحددة الاتجاه ، ويعلل ذلك ـ بين أسباب أخرى ـ بأن

العرب كانوا يواجهون أعداء مختلفين ، إذ كانت بعض الشعوب العربية واقعة تحت السيطرة العثمانية وبعضها الآخر فى قبضة دولة من الدول الغربية الاستعمارية ، ولكنه يحكم على القوميتين معا ـ العربية واليهودية ـ هذا الحكم الذى يمكن أن يبدو غريبا ، كما يمكن أن يبدو عاما جدا :

« إن أصول الفكرة القومية كثيرا ماتبدو غير لافتة للنظر ، ولكننا نترك الاسطورة تنمو وتسمو مع الزمن أو النجاح أو كليهما معا . فكما أن الصهيونيين الأوائل كان منشؤهم عشرين أو نحو ذلك من الطلاب اليهود فى الجامعات الروسية .. فكذلك كان على العرب أن يلتمسوا أصول قيادتهم لدى قلة من الأندية الأدبية فى الجامعات ، وإن حججهم لتبدو لنا ساذجة وبعيدة عن الواقع ، فقد بنوا أفكارا فلسفية هائلة على فروق لغوية صغيرة ، بل إن بعض هذه الفروق كان محل شك ، ولم تؤد إلا إلى إسدال ستار من الغموض على ما لم يرد الكتاب أن يواجهوه ، أو ما واجهوه بطرق متنافرة ، وهذا هو مازاد الحركة ضعفا » .

ولاشك أن هذه الفقرة نفسها تتصف بالغموض إلى درجة كبيرة ، ولعل الكاتب معذور فى ذلك ، فما سمي بالحركات القومية فى العالم العربى كان ـ ولايزال ـ شديد التنافر من حيث المدى الزمنى والمكانى ، ومن حيث التوجه التاريخى والمستقبلى بحيث لاتمكن مقارنتها بالأسطورة الصهيونية التى تبدو كآلة صنعت بعناية واصرار ، وادخلت عليها التحسينات مرة بعد مرة لتكون أكثر كفاءة ، فلم تترك « لتنمو وتسمو » كما يقول الكاتب ، أو كما هو شأن الأساطير الطبيعية .

وبما أن الصهيونية أسطورة مصنوعة ، فقد كان من السهل على الكاتب أن يبين كيف بنيت هذه الأسطورة ، فالطلاب اليهود فى الجامعات الروسية ، الذين بدأت بينهم الفكرة الصهيونية ، لم

يكونوا يهودا إلا بالدين والثقافة والوضع الاجتماعى ، إذ كانوا . كسائر يهود روسيا ، من بقايا مملكة الخزر التركية التى دخل أهلها فى اليهودية لأسباب سياسية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، حتى تقف فى وجه جارتيها القويتين : الدولة الاسلامية من ناحية ، والدولة البيزنطية المسيحية من ناحية أخرى (وكان الدين فى تلك العصور يناظر الايديولوجية السياسية فى هذه الايام ، كما نعرف من صراع اليهودية والمسيحية فى اليمن قبل ظهور الاسلام) .

وهكذا ابتدع اليهود حركة سياسية ، واخترعوا لها قومية ، ثم اخذوا يبحثون لهذه القومية عن وطن يقيمون عليه دولة . ومازالوا يوهمون الغرب بأن دولتهم هى دولة قومية كالدول الغربية ، رغم هذه المفارقة الغريبة ، وهى أن دولتهم « القومية » تقوم جنسيتها على الدين .

أما « الفكرة القومية » فى العالم العربى فشأنها مختلف جدا ، ولألبرت حورانى مقالة عنوانها « الفكرة القومية فى الشرق الأوسط امس واليوم » حاول فيها أن يحيط بجميع الاتجاهات نحو « تحديث نظام الدولة » فى العام الإسلامى ، ولكن الموضوع تشعب بين يديه نتيجة لتشعب هذه الاتجاهات نفسها : بين تحديث مستعد من الشريعة وتحديث مستمد من الأفكار الغربية عن نظام الدولة ، وقومية مرتبطة بحدود الدولة وأخرى تتجاوز تلك الحدود . والمشكلة الأساسية في هذا المقال أن مفهوم « القومية » يتسع آنا بحيث يشمل العالم الإسلامى كله ، ويضيق آنا بحيث يقتصر على السلطة السياسية فى حيز صغير منه .

ولاتزال فكرة « جورج انطونيوس » عن ارتباط الفكرة القومية فى العالم العربى بالأقليات الدينية تلقى قبولا لدى معظم الباحثين ، فهى تلوح كقضية مسلم بها فى كتاب بولك ، وحورانى نفسه ، الذى

يرفضها نظريا ، يطبقها عمليا فى دراسته عن الدولة اللبنانية ، اما واقع الحركات التى قامت فى العالم العربى ضد الاستعمار ولاتزال قائمة حتى اليوم ، فهو انها حركات وطنية ، اى انها مرتبطة بالأرض ، لا « بأسطورة » قومية وانما راجت الاسطورة القومية بين بعض الأوساط العربية ردا على دعوة القومية التركية ، وبتشجيع من الدول الغربية ، واما الوحدة التى تربط بين أجزاء العالم العربى فانها لاتقل واقعية ، وهى وحدة الحضارة التى تعتمد على الدين واللغة ، وأما المشكلة التى تواجه العرب اليوم ، ولن يستطيع ان يحلها غيرهم ، فهى إيجاد نوع من الوحدة السياسية يجمع بين الوحدة الحضارية والوحدة الوطنية .

المقدرة

المقدرة (Capacity) وتترجم أحيانا بالطاقة أو القدرة اصطلاح دائر بين العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومعناه فى الاقتصاد السياسى ـ كما يشرح وليم بولك فى مقدمة كتابه « السلاح المراوغ : الشرق الأوسط فى القرن العشرين » ـ الناتج القومى فى قطر من الأقطار مقسوما على عدد السكان ، ولاجدال فى أن دلالة رقم كهذا إنما تظهر من خلال المقارنة ، ولذلك يجرى الكاتب مقارنة بين إسرائيل ومصر ، وهنا يظهر نوع من التناقض لافت للنظر ، فالناتج القومى الكلى فى كلا البلدين يقارب البلد الآخر : ١٤ ألف مليون دولار فى مصر و١٢ ألف مليون دولار فى إسرائيل ، ولكن متوسط مايخص الفرد فى مصر التى يبلغ عدد سكانها حوالى الأربعين مليونا لايتجاوز ٣٥٠ دولارا ، فى حين أن نظيره فى إسرائيل ذات الثلاثة ملايين ونصف المليون هو ٣٣٧٠ دولارا تقريبا ، ويقابل ذلك تناقض جغرافى مماثل ، فمصر التى تبلغ مساحتها حوالى ٣٨٦ ألف ميل مربع لاتملك من الأرض الزراعية إلا مايقارب عشرة آلاف ميل مربع ، فى حين أن إسرائيل التى تبلغ مساحتها ثمانية آلاف ميل تستغل ستين فى المائة من هذه المساحة تقريبا فى الزراعة .

لعل بولك اختار مصر بالذات لأنها النموذج الأوسط فى العالم العربى ، فمقدرة العالم العربى ـ ككل ـ مبعثرة على مساحة

واسعة ، ونستطيع أن ننقل هذا الوصف ـ بسهولة ـ من المجال المادى إلى المجال المعنوى ، ولكننى لا أظن أن عربيا واحدا يمكنه أن يقتنع بهذا المعيار الذى يقدمه المؤرخ الأمريكى لقياس الإنجاز السياسى فى الماضى او الاحتمالات السياسية فى المستقبل ، فلو أن مختصا فى « التاريخ الإحصائى » استخرج الناتج القومى الكلى لشبه جزيرة العرب ولكل من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية حوالى سنة ٦٠٠ لميلاد المسيح ، لأمكنه أن يقدم كل احتمال عقلى يخطر على البال سوى ماحدث فعلا .

ولكن المقدرة المحسوبة إن لم تكن هى العامل الوحيد الفاصل فى كل صراع فإنها عامل مهم ، ولايكفى أن تحسب حساب مقدرة الخصم ، بل يجب أيضا أن تعرف كيف يحسب الخصم مقدرتك ، كذلك يجب أن تعرف كيف يحسب الآخرون ، الواقفون خارج حلبة الصراع مقدرتك ومقدرة خصمك ، لأن هؤلاء الواقفين يترقبون من يكون المنتصر منكما ، فإذا لاحت الدلائل على غلبة أحد كما ساعدوه سرا أو جهرا ليشاركوه فى الغنيمة ، هذا هو معنى « قياس المقدرة » والغرض منه ، وهذه هى اللغة التى يتكلمها القوم ويفهمونها ، اما « الحق العربى » فكلام نتكلمه نحن ، ولن يفهموه إلا حين نترجمه إلى مقدرة .

وبولك صديق لنا إن عددنا الاصدقاء ، ألم يدع إلى التحاور مع الفلسطينيين ، والاعتراف بحقوق الفلسطينيين ؟ ولكنه لايتخذ هذا الموقف إلا توقيا لحادث كحادث جنود البحرية الأمريكيين الذى وقع بعد أربع سنوات من تأليف كتابه . يقول : « على قدر نجاح إسرائيل فى أعمالها ضد الفلسطينيين ، سوف يصبح هؤلاء اكثر استقتالا وأشد خطرا ، إن حرب العصابات والارهاب لايحدان بالجنس او بالجغرافيا . لقد استخدمهما الضعفاء فى كل مكان ، واستخدموهما بنجاح غالبا ، ومهما يكن سخطنا على الفظائع التى يرتكبها بعضهم ، فإن قليلين منا يستطيعون ان يقولوا وهم

مستريحو الضمير : إنهم لو وصلوا إلى نفس الحالة من اليأس لتصرفوا بطريقة مختلفة» .

هذا - اذن - هو الاعتبار الوحيد الذى يمكن للسياسة الدولية أن تأخذه فى الحسبان الى جانب اعتبار « المقدرة » ونستطيع نحن أن نأسف ونأسى لكون السياسة الدولية على هذا الحال ، ولكن الأسف والأسى من جانبنا لايغيران السياسة الدولية .

يمكن ان يكون هناك اعتبار آخر يهم « دافع الضرائب » الأمريكي ، ولو ان بولك يقدم هذا الاعتبار بحذر شديد فاسرائيل فى نظر الأمريكيين « هى الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط ، والدولة الوحيدة التى يمكن التفاهم معها بحق ، والتى تبدو مؤسساتها مألوفة للغربيين ، ويتصرف أهلها على طريقة الغربيين ، وهى ايضا تهيىء منفذا جيدا الى داخل الاتحاد السوفييتى (عن طريق الطائفة اليهودية) ولذلك فإن خدماتها تكاد تكون حيوية لأمن أمريكا فى بعض الأحيان ، ولكنها تكلف أمريكا كثيرا» : « فأمريكا هى مصدر الأموال لدعم الحكومة وبناء البلد ، والاسلحة لتجهيز الجيش ، والعقود السخية لاقامة مؤسسات البحث وصناعات الحرب ، ولولا المساعدة الأمريكية لكان من الجائز ألا تقوم اسرائيل أبدا ، ومن المؤكد ألا تستمر فى الحياة طويلا ، ولايزال الرسميون الإسرائيليون الذين يقومون بزيارات مكوكية منتظمة إلى الولايات المتحدة يذكرون الطائفة الصهيونية الأمريكية بهذه الحقائق مرارا وتكرارا حتى جعل الاسرائيليون انفسهم فى وضع أشبه مايكون بالولاية الحادية والخمسين ، بل الولاية الأكثر رعاية . ففي ميزانية ١٩٧٨ كان نصيب الفرد الاسرائيلى من المساعدات الحكومية الامريكية مايقرب من ألف دولار ، وهو رقم أعلى بكثير مما يحصل عليه سكان مدينة نيويورك (٢ بليون دولار) مع انهم يبلغون أربعة أضعاف تعداد الاسرائيليين ، وبينهم عدد من اليهود يفوق تعداد الإسرائيليين ، ونيويورك - بعد - جزء من الولايات المتحدة .

ولكن هذا كله لايحجب عن عينى الكاتب انجازات « المقدرة » الاسرائيلية ! فاسرائيل هى بطل الرواية ، هذا هو الانطباع الذى يخرج به اى قارىء لكتاب بولك . الصهيونية اولا ، ثم اسرائيل ثانيا ، هى العنصر الايجابى الفعال فى المنطقة ، فى مجال الدبلوماسية ، وفى مجال الحرب ، وفى مجال بناء الدولة ، وكونهم قد اعتمدوا على مساعدات الدول الغربية فى هذه المجالات كلها امر لايؤثر فى احكام الكاتب (ولعله يقول إن الحصول على هذه المساعدات هو نفسه ضرب من النجاح) واليك جملا اقتطفها من ختام الفصل الذى عقده عن « نمو المقدرة » :

« إن إسرائيل استخدمت ماحصلت عليه من الخارج استخداما حكيما وجيدا ، والخلاصة أن الاسرائيليين بنوا مجتمعا صناعيا غربيا حديثا ، ومن السهل على الصناعة فى كل أوروبا وأمريكا أن تتعامل مع الصناعة الاسرائيلية .

وقد استطاع الاسرائيليون ان يحققوا أعلى مستوى معيشة فى الشرق الأوسط ، وبلغ انتاجهم القومى الكلى تسعة آلاف مليون دولار سنة ١٩٧٩ .

... الواقع أن اسرائيل ، فى الأمور المهمة ، أكبر عددا من جاراتها العربيات ، ليس فقط لان لديها عددا أكبر من المهندسين والطبيعيين والكيميائيين والفنيين ، بل لأنها تستطيع أن تضع فى الميدان قوات أكبر ، وان دعت الضرورة فلديها المقدرة منذ زمن طويل على انتاج الاسلحة الذرية وتوجيهها ، لقد سبقت العرب بحيث اصبحت عنصرا فى الشرق الأوسط خارجا عن حدود الشرق الأوسط . ولكن نجاحها فى التحديث اصبح هو نفسه عقبة يجب اجتيازها فى الطريق الى السلام » .

ولكن الكاتب المشغول جدا بقضية السلام فى الشرق الأوسط يوحى لقارئه (الغربى) بأن ثمة طريقا آخر ممهدا ، خاليا من

العقبات ، لتحقيق السلام المنشود ، طريقا يملك الغرب مفاتيحه كلها ، فهو يقول فى فقرة أخرى من الفصل نفسه : « لقد عبر بن جوريون عن الوضع بامانة حين قال انه لو كان عربيا لرفض الصهيونية رفضا تاما كما فعل عرب فلسطين ، ومن المفارقات ان العمل على رخاء العرب والزيادة فى مقدراتهم . وانتشار المعرفة ونمو وسائل الاتصال ، وعلى الجملة نجاح الاسهام الأوروبى فى الشرق الأوسط . قد قوض كل أساس ممكن للوفاق او التفاهم » .

هكذا ، إذا لم يمكن كبح جماح الإيجابية الصهيوبية ، ففى استطاعة الغرب دائما ان يقبض يده عن الإنعام على اولئك العاجزين ، عرب الشرق الأوسط ، فيعود الأمر الى نصابه ، ويفرض الغالب سلطانه على المغلوب !

وعلينا نحن العرب ان نشكر لصديقنا بولك اسلوبه المهلهل ، (وعلائم هذه الهلهلة بارزة فى أكثر من جهة) لأنه لم يخف شيئا من الافكار التى تجول فى رأس أى إنسان غربى حين يفكر فى أمور العرب . مهما تكن درجة علمه بهذه الأمور .

فمن الجائز جدا أنه ألف هذا الكتاب وهو غاضب ومعتزل فى تلك القرية اليونانية لان وزارة الخارجية الأمريكية لم تأخذ بأرائه فى سياستها نحو « الشرق الأوسط » ، ولكنه ـ من وجهة نظرنا نحن ـ لم يقترب كثيرا من فهم مشكلات العرب . بل لعله غالط نفسه فى أمور كثيرة ، وربما كنا نحن العرب أشد نقدا لانفسنا من أعدائنا وأصدقائنا على السواء ، ولكننا نعرف مثلا ، ان ثورة ١٩١٩ المصرية لم تكن مجرد شغب طلاب كما زعم بولك (ص ٤٦) وان ثغرة ١٧ اكتوبر ١٩٧٣ (التى حددت مكانها الأقمار الصناعية الأمريكية وفتحتها أحدث الاسلحة الامريكية) لم توشك أن تؤدى الى هزيمة مذهلة للجيش المصرى ، بقدر ما كادت تشعل حربا شعبية ، اوقفتها القيادة السياسية المصرية .

ترى هل كان بولك ليغير آراءه لو شهد فرار الجيش الاسرائيلى من جنوب لبنان ؟

غربى عن التغريب

يقول المستشرق البريطانى برنارد لويس فى كتابه « الشرق الأوسط والعالم الغربى » : « لقد اصبح من المألوف فى السنوات الأخيرة (لدى الغربيين بالطبع) ان يهتم الدارسون بجمع أطراف الصورة التقليدية التى ارتسمت فى اذهاننا عن ابناء الأمم الأخرى بما فيها من ذكريات ومن اوهام ، وذلك من أجل معرفة ما لهذه الصورة من تأثير فى سياستنا نحو أولئك الأقوام » ، ويقترح أن يهتم الأوروبيون ـ أو الغربيون عامة ـ بمعرفة الصورة التى كونها أهل الشرق الأوسط عن الغرب ، « فربما كانت معرفة هذه الصورة ألزم وأهم » .

انك لاتصادف مثل هذه الصراحة الا حين يكتب العالم المستشرق لجمهور غربى عريض ، لا لقلة من المستشرقين ، ولتلاميذ المستشرقين من الشرقيين ، فالاستشراق غير منفصل عن السياسة : أنه يخدم أغراضها القريبة أو البعيدة ، ولكن هذا لايعنى انه دائما ـ أو غالبا ـ بوق للسياسة ، بل هو من السياسة فى مكان الخبير الذى يستشيره صناع السياسة قبل اتخاذ قراراتهم ، والخبير يدعى لحل مشكلة معينة ، تتوقف على حلها مصلحة ، فهو يفكر ويستنبط ويخترع لحل هذه المشكلة وتحقيق هذه المصلحة ، ولكنه لايزيف الحقائق لانه فى هذه الحالة لايكون خبيرا علميا ، اما إذا أراد صناع السياسة ان يزيفوا حقائق معينة ـ وهم عالمون

بتزييفها - فانهم يلجأون الى خبراء مختصين بذلك ، وكل فريق له مكان عندهم ، مادام الغرض دائما هو المصلحة .

ولاتخفى سمات المستشرق العالم ولا سمات المستغرب الداهية ومن سمات العالم البحث عن الحقيقة مجردة عن الهوى ، وليس هذا بالأمر اليسير ، حتى حين تتجمع الوقائع بين يديه لتزلزل المسلمات المستمدة من بيئته وثقافته ، ولكن برنارد لويس يواجه نفسه وجمهوره بانتقاد عادة شائعة فى الغرب (ويضيف بين قوسين : ان هذه العادة تزداد ظهورا كلما اتجهنا غربا) عادة الرضى عن النفس ، فنحن الغربيين نحسب انفسنا مثال الفضيلة والتقدم ، من يشبهوننا هم الطيبون ، ومن لايشبهوننا هم الأشرار . ان يصبح الناس اكثر شبها بنا معناه انهم يتقدمون . وان يصبحوا اقل شبها بنا معناه أنهم يتقهقرون .

ويجب أن نلاحظ هنا ان الكتاب هو نص سلسلة من المحاضرات ألقاها المؤلف فى جامعة انديانا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفخر الأمريكيين بحضارتهم امر مشهور !

بل إن برنارد لويس لايعجبه اصطلاح « الشرق الأوسط » وأن وجد نفسه - من الناحية العملية - مضطرا لقبوله نظرا لشيوع استعماله فى الوقت الحاضر ، وهو يتتبع اصله بدقة العالم ، فيجد ان مخترعه هو مؤرخ عسكرى امريكى متخصص فى تاريخ البحرية ، اطلقه فى سنة ١٩٠٢ على المساحة الواقعة بين بلاد العرب وشبه القارة الهندية ، ثم لم يزل يتداوله الكتاب العسكريون والصحافيون وحتى الجغرافيون بمعان متفاوتة الى ان اصبح يطلق على المنطقة الممتدة من البحر الأسود الى اواسط افريقيا ، ومن الهند الى المحيط الاطلسى ، وهنا يعلق برنارد لويس بقوله : انه مما يلفت النظر حقا ان هذه المنطقة ذات الحضارة العريقة - بل هى صاحبة اعرق حضارة فى العالم - اصبحت تعرف ، حتى بين اهلها ، بهذا الاسم الجديد الذى لا لون له !

أما الشخصية المميزة لهذه المنطقة فهى ، كما يقرر برنارد لويس ، تقوم على الدين واللغة ، فهى متعددة القوميات ، وبعض دولها تشتمل على اقليات عرقية ، ولكننا لانعثر فى طولها وعرضها على قومية واحدة او اقلية واحدة لم تعتنق اما الدين واللغة معا واما واحدا منهما ، ووراء ذلك وحدة الحضارة من الشعر الى المطبخ كما يقول برنارد لويس ، وتأتى اللغتان الفارسية والتركية فى سعة الاستعمال بعد العربية ، وكلتاهما نشأت فى ظل العربية .

اما صورة الغرب لدى ابن هذه الحضارة فقد اختلفت بين العصور الوسطى (كما يسميها الأوروبيون) والعصر الحديث ، او الحديث جدا . اما فى العصور الوسطى فقد كان ابن هذه الحضارة الاسلامية ينظر الى الانسان الغربى على انه همجي ، ولم تكن هذه النظرة بعيدة عن الحقيقة ـ هكذا يعترف برنارد لويس ـ اذا لاحظنا سلوك بعض الصليبيين .

ولكن الغرب تغير ابتداء من القرن الخامس عشر ، لقد بدأ حركة توسع مستمر ظل هذا « الشرق الأوسط » فى غفلة عنها ، وكانت انتصارات الدولة العثمانية فى شرق أوروبا تمنحه شعورا بالثقة ، ولكن هذه الثقة بدأت تهتز عندما اندحرت الجيوش العثمانية امام فينا سنة ١٦٨٣ ، وتوالت الهزائم بعد ذلك ، ثم احتل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨ .

هنا أفاق الشرق ، فوجد الغرب قد سبقه بمراحل كثيرة ، ويميز برنارد لويس بين ثلاثة أنواع من التوسع الغربى : توسع تم بابادة السكان الاصليين او حصرهم فى مناطق ضيقة ، ولم ينجح الأوروبيون فى تحقيق ذلك ، الا فيما سموه العالم الجديد ، ثم حاول الفرنسيون تحقيقه فى شمال افريقيا ففشلوا ، ويفسر المؤرخ البريطانى هذا الفشل بأن الاستعمار الأوروبى وجد فى هذه المنطقة من العالم ـ كما وجد فى الشرق الأقصى ايضا ـ شعوبا

مستقرة ، وحضارات راسخة ، ولكن مسلكه كان مختلفا فى الشرقين : فى الشرق الأقصى وجد الاستعمار الكامل ، طويل الامد ، اما فى الشرق الأوسط فقد كان الاستعمار قصير الأمد نسبيا ، ومع ذلك فاننا نجد ـ فى شرقنا الأوسط هذا ـ مفارقة عجيبة ، كان الاستعمار قريب العهد وقصير العمر وغير مباشر غالبا ، ومع ذلك فإن التأثير الأوروبى كان عميقا وشاملا !

ان برنارد لويس لايعطينا تفسيرا نظريا لهذه الحالةالعجيبة ، ولكنه يقدم الينا الشواهد التاريخية ، ولعلنا بعد ان نمضى معه فى استعراض هذه الشواهد نرى ان التأثير الأوروبى لم يكن فى الحقيقة عميقا ولا شاملا ، وانه لم يرد بهاتين الصفتين الا المظهر فقط .

ان الاحتلال الفرنسى لمصر لم يدم الا ثلاث سنوات ، والهزائم التى لحقت بتركيا وقع معظمها فى أرض اوروبية اصلا ، ولكن الصدمة النفسية كانت شديدة على ابناء هذه المنطقة الذين نظروا الى الحضارة الغربية بانبهار كما ينظر المغلوب الى الغالب ، وهكذا بدأت الرحلات الى أوروبا ، وأخذ العائدون يصفون مشاهداتهم هناك ، يعجبون بالكثير ولاينكرون الا القليل ، وكان من هؤلاء الشيخ الأزهرى رفاعة رافع الطهطاوى الذى رافق أولى بعثات محمد على العلمية الى فرنسا مرشدا دينيا لاعضاء البعثة ، ولبث هناك خمس سنين من ١٨٢٦ الى ١٨٣١ ، وعاد ليكتب « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وينشىء مدرسة الألسن .

ولكن موجة الاعجاب والانبهار لم تقف عند حد . لقد استعيرت الاسلحة والنظم العسكرية اولا ثم استعيرت الافكار ثانيا ، وظهرت فى « الشرق الأوسط » أو العالم الاسلامى على الاصح ، طائفتان كان لهما شأن كبير فى بث « الأفكار الجديدة » : طائفة المحامين وطائفة الصحفيين ، واقتبس كل شىء من الغرب ، حتى أصبح ارتداء الملابس الأوربية مثلا ، دليل الرقى .

غير ان هذه التغييرات ، النافع منها والضار على السواء ، بقيت مقصورة على المتعلمين فى المدارس الحديثة ، وسكان المدن عموما ، وبقى الريف والبادية بمنأى عن كل ذلك ، ولعل هذا هو أخطر مظاهر التفكك الذى يشير اليه برنارد لويس ، لقد تحطمت اشكال الحياة القديمة ، تركت القيم القديمة واستهزىء بها ، وحلت محلها مجموعة من النظم والقوانين والمعايير المستوردة من الغرب ، والتى ظلت غريبة ومقحمة على حاجات الشعوب الاسلامية فى الشرق الأوسط ، وعلى مشاعرها وطموحاتها . قد يقال ان هذه التغيرات كانت ضرورية ولامفر منها ، فهذه هى الكلمات التى يستخدمها المؤرخون ، ولكن الذى لاشك فيه هو انها جاءت بعهد من الفوضى وانعدام المسئولية ينطوى على ابلغ الضرر بالأوضاع السياسية والاجتماعية فى الشرق الاوسط .

هذا هو وصف برنارد لويس لآثار التغريب السلبية فى المجتمعات الاسلامية ، لذلك لانعجب اذا وجدناه يطرح هذا السؤال الذى اخذ المفكرون فى الشرق الأوسط يرددونه فى هذه السنوات الأخيرة . ما نتيجة هذا التغريب كله ، ولكنه يعقب عليه بعبارات تستحق الكثير من التأمل . وقد اقتبسنا بعضها فى صدر هذا المقال ، ونعيد الفقرة هنا كاملة لان السياق يلقى عليها ضوءا جديدا .

« هذا سؤال يجب ان نلقيه على انفسنا أيضا ، [هل يعنى : مانتيجة تغريب الشرق ، او مانتيجة الحضارة الغربية عموما ؟] ان لدينا عادة شائعة فى الغرب ـ وهى تزداد ظهورا كلما اتجهنا غربيا : عادة الرضى عن النفس ، فنحن الغربيين نحسب انفسنا مثال الفضيلة والتقدم ، من يشبهوننا هم الطيبون ومن لايشبهوننا هم الأشرار ، ان يصبح الناس أكثر شبها بنا معناه انهم يتقدمون ، وان يصبحوا أقل شبها بنا معناه انهم يتقهقرون ، ولكن هذا لايلزم أن يكون صحيحا ، عندما تتصادم الحضارات ، تتغلب واحدة ،

وتتحطم الاخرى ، دع المثاليين والنظريين يتشدقون (باقتران افضل العناصر) من الجانبين ، فالذى ينتج عادة هو اقتران أسوأ العناصر » .

واضح ان الذى يتكلم هنا هو الفيلسوف وليس المؤرخ ، واذا كنا قد حمدنا له سعة أفقه ، حين تخلى عن موقف الغرور الذى يتخذه عامة الغربيين حين ينظرون الى غيرهم من الشعوب ، فاننا لانوافقه على فلسفته التاريخية التى ترى ان الحوادث تتحرك بحتمية لا هدف لها ، وقد تكون مدمرة ولكنها لايمكن دفعها او تعطيلها . أنه لايختلف عن اولئك « المؤرخين » الذين تحدث عنهم فيما سبق الا بأن عباراته تحمل معمى المأساة .

ولكن الحضارة الغربية المعاصرة ـ كما يعلم الجميع ـ تحاول الآن أن تمحو معنى المأساة بالعبثية ، اما نحن فنفضل ان نكون من فريق « المثاليين والنظريين » (وأن لم نجدهم بين مفكرى الغرب المعاصرين) ونطمع ان نتوقف عن التغريب الأعمى ، وأن نصنع حقا حضارة جديدة !

ثمن الحضارة الغربية

فرنشسكو جابريلى مستشرق ايطالى معروف ، تفتح شبابه على العهد الفاشى ، وشهد الحرب العالمية الثانية وهو فى العقد الرابع من عمره ، طوال هذه الفترة أثر الابتعاد عن مشكلات العالم العربى المعاصر ، عاكفا على ابحاث اكاديمية مثل تاريخ الأمويين ونظرية الشعر عند العرب . وبعد خروج ايطاليا مهزومة (أو محررة ؟) من الحرب العالمية الثانية ، وعودة العرب مرة أخرى ، ولاسباب متعددة ، الى « دائرة الضوء » فى العالم المعاصر ، اهتم جابريلى بالكتابة للجمهور القارىء فى العالم الغربى عن هؤلاء العرب ، ماضيهم وحاضرهم ، فكتب تعريفا موجزا بعنوان « العرب » (الطبعة الأولى بالايطالية سنة ١٩٥٨) ثم كتب بالانجليزية كتابا عن تاريخ العرب الحديث ومشكلاتهم السياسية المعاصرة ، عنوانه « الاحياء العربى » (١٩٦١) .

الظن به ، وهذه خلفيته ، ان يكون أكثر تعاطفا مع العرب من عامة المستشرقين الأوروبيين ، فلايطاليا علاقات تجارية قديمة مع العرب ، ترجع الى ايام دولة المماليك ، والخبراء الايطاليون كانوا اول من استعان بهم محمد على فى تحديث دولته ، او من اوائلهم ، والوحدة القومية الايطالية تأخرت الى اواسط القرن التاسع عشر ، فمثل الوحدة التى يحلم بها العرب ، لاتزال حية فى نفوس الايطاليين اما الاستعمار الايطالى لليبيا فقد بلغ أوج شراسته فى

العهد الفاشى الذى عانى من وطأته الشعب الايطالى نفسه ، ولايبدو أن جابريلى كان من أنصاره او المتعاطفين معه .

والقضايا المعاصرة لايحتكم فيها الى العلم وحده ، بل ان العالم يتأثر فى حكمه عليها بمصالح قومه كما يتأثر بتاريخه الثقافى وميوله الشخصية ، ولاشك أن اهم قضية تشغل العرب ، منذ نصف قرن تقريبا ، هى قضية فلسطين (ولو ان جذورها ترجع الى وعد بلفور سنة ١٩١٧) وجابريلى حين يتعرض لهذه القضية لايعمّى ولايجمجم . ففى سياق الحديث عن شكوك العرب تلقاء السياسات الغربية يقول :

« وثمة عامل اضيف فى فترة مابين الحربين العالميتين ، وزاد فى تذمر العرب ، وغيظهم ، وقلقهم ، وسخطهم ، اعنى القضية الفلسطينية التى خلقتها بريطانيا اثناء الحرب العالمية الأولى ، فى غير مبالاة بالعواقب ، وخلفتها بدون حل الى الحرب العالمية الثانية ومابعدها ، وقبل ان نسرد الوقائع والتواريخ الاساسية يمكننا ان نلاحظ هنا ان هذه المشكلة قد اصابت احتمالات الصداقة المخلصة بين العرب والكتلة الغربية (ان جاز لنا ان نستعمل اصطلاحا عصريا) بضرر لايمكن اصلاحه ، وخلقت عداوة نحو الغرب ظلت حية وقابلة للاستغلال من قبل الآخرين ، بينما كان المطلب الأسبق ، مطلب الاستقلال ، قد تحقق او كاد » .

ولا اظن أن ثمة خلافا بين العرب على ان مطلبهم الثانى هو الوحدة القومية ، ولو ان الخلاف كله حول شكلها ووسائل تحقيقها ، وهنا ايضا نجد جابريلى لايعمى ولايجمجم . فاذا كان فى استطاعته ان يقول كلاما صريحا حول قضية فلسطين ، لأنه ـ فى الواقع ـ ينظر اليها من الخارج ، غير مرتبط باخطاء سياسية فادحة ، قديمة او حديثة ، يحاول البحث عن تبرير لها ، فإنه ينظر الى قضية الوحدة العربية من الخارج ايضا ، هذه القضية التى لاتعنيه الا انه يجد فيها صورة من تاريخ امته ، ولكنه غير مستعد

لان يقبل اعذارا عن المماطلة ، والتسويف ، والنكسات التى اصابت هذه القضية (وإن كان فى استطاعته ـ كمؤرخ ـ ان يفهم اسباب ذلك كله) لأنه ايضا غير متورط فيها . لذلك نلاحظ نبرة من الحماسة فى كلامه عن الوحدة العربية ونقيضتها الاقليمية (وهو المؤرخ الغربى المحايد !) حماسة قد لانجدها عند كثير من العرب . فبعد ان يستعرض التطورات السياسية التى نمت فى كل قطر من الاقطار العربية على حدة فى فترة مابين الحربين ، يقول :
« هذه هى الخطوط الرئيسية لتاريخ الاحياء العربى خلال تلك السنوات العشرين ، احياء فقد مثله الرفيعة ، ونزل بطموحات الوحدة القومية العربية صبغة ومدى ، ليوجهها نحو اهداف اقليمية محدودة ، واضفى على قضية ، كانت تتطلع نحو رؤيا عريضة سامية ، ثوبا اميل الى الخشونة والكزازة ، ولقد كانت مثل الوحدة العربية تتنسم انفاس الحياة هنا وهناك ، الى أن تبوأت مكانها بوضوح وقوة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن عندما جاء ذلك الوقت كان قد خلق جو سياسى دفع القادة دفعا لاسبيل الى مقاومته ـ وان لم يعترف به صراحة ـ نحو السلطة الشخصية والدكتاتورية » .

غير انه لايلقي باللوم كله على القادة العرب فى فترة مابين الحربين العالميتين ، بل انه يصرح بما كان للتخطيط الاستعمارى المبيت من أثر فى تعويق مسيرة الوحدة العربية . فيقول فى موضع آخر .

« بينما كانت الحرب (العالمية الثانية) تقترب من نهايتها ، مطوحة بالاستعمار النازى الفاشى فى التراب ، وبدأ الشعب يتطلع الى انتصار مثل الحرية والعدالة ، عاد الحلم العربى الأول بالوحدة الى الظهور ، بعد ان كتمته المهمة الاكثر اهمية ، مهمة التحرير ، فان الدول التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، ارادت بتحطيم الامبراطورية العثمانية الى دول اقليمية متعددة ان تتعامل

مع إدارة أكثر طواعية ، وأن تستغل الخصائص الجغرافية والتاريخية التى تميز كل اقليم ، لقد أرادت أن تؤكد الفروق ، أكثر من الوحدة بين هذه الأقاليم ، لاشك أن هذا ساعد على تعميق الخلافات الاقليمية طوال العشرين سنة الواقعة بين الحربين ، ولكنه لم يمنع من تطوير خطط اخرى للتغلب على هذه الانقسامات » .

كل هذا حسن من مؤرخ أوروبى .. ولكن القارىء (العربى) يفاجأ برأى غريب للمؤلف نفسه فى مشروعية الاستعمار الاستيطانى ، واكثر مدعاة للاسف أن هذا الرأى يرد فى أول الكتاب (ص ٤٢) . ثم يعود المؤلف قرب النهاية (ص ١٥٦) فيقول مايؤكده ، والقضية هنا قضية جوهرية ، ومستمرة ، اكثر من القضيتين السابقتين ، واختلاف موقف المؤلف يمكن أن ينبهنا الى المشكلة الحضارية الكبرى التى تكمن خلف كل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى العلاقات بين الشرق والغرب .. ولكن لنسمع اولا مايقوله المؤلف :

« كان احتلال مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية بداية لعشرين سنة من حرب العصابات ، قبل ان يتمكن الفرنسيون من السيطرة على البلاد بصورة كاملة ، وستظل الآراء مختلفة حول هذه الحرب بناء على موقف كل صاحب رأى من الاعتراف او عدم الاعتراف بحق الحضارة المتفوقة فى أن تفرض نفسها على الشعوب البدائية ، وان تمنحها خيرات التقدم التقنى ، وتأخذ منها .. فى مقابل ذلك ـ الثروات التى لاتستطيع تلك الشعوب نفسها ان تقدر قيمتها ، بدءا بالأرض » .

هل نسامح صديقنا الايطالى (ونحن دائما مسامحون وطيبون !) لانه لم يجزم بموقف ، بل وضع القضية فى صيغة سؤال ، وكأنه يعبر عن حيرة الضمير الأوروبى امام مشكلة ، لم

تكن فى نظرة مشكلة عندما كان الاستعمار الأوروبى فى عنفوانه ؟ ولكن كيف نستطيع ان نتسامح ، وهو يعود الى المشكلة الجزائرية نفسها فى الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعد ان أوشكت ثورة التحرير الجزائرية ان تتم من عمرها سبع سنين ، وبدأت بشائر انتصارها تلوح فى الأفق ، فلا يتحدث عن الثورة الجزائرية نفسها بخير أو شر ، ولكن يعرض المشكلة من زاوية الخلاف بين ديجول من ناحية ، والعسكريين والمستوطنين الفرنسيين من ناحية اخرى ؟ بل اننا نقرأ ـ بين السطور ـ ما يشبه ان يكون نقدا للأول ، وعطفا على الفريق الثانى . (لاننسى ان الكتاب نشر سنة ١٩٦١ ، عندما وصلت هذه الأزمة الى ذروتها ، وعند الازمات ـ كما هو معروف ـ يتبين العدو من الصديق) .

على اننا لانلوم جابريلى او غيره ـ فالمرء حيث يضع نفسه ، وكذلك الأمم ، ومادمنا نتلقى (خيرات الحضارة) من يد الغرب ، فسينظرون الينا دائما ـ حتى ذوى النيات الطيبة منهم ـ على انهم المنعمون المتفضلون . واليد العليا خير من اليد السفلى ، ولايهم اننا ندفع اثمان مانتلقاه اضعافا مضاعفة ، مادمنا نملك ان نرفض الصفقة كلها . هذا هو المفهوم الغربى للعدالة ، فى جذوره العميقة ، بيع وشراء ، وكل شىء يباع ويشترى حتى الضمائر والذمم ، حتى حريات الشعوب حتى الأوطان نفسها !

بل يجب ان نشكر لهذا الرجل الايطالى الطيب انه عرى تلك الجذور ببساطة تامة ، مع أن كثيرين غيره يلفون ويدورون : تارة يحفرون فى سراديب التاريخ القديم ، وتارة يمدون بحبالهم الى سماء المستقبل ، والمستقبل غيب لا يعلمه الا الله ، ونذر الشر تلوح فى افقه اكثر من بشائر الخير التى يزخرفها بائعو الاحلام للمعدمين .

وقبل هذا وذاك يجب ان نعلم ان قوتنا الحقيقية تكمن فيما

ينساه القوم دائما : وهو اننا لسنا كتلة سلبية صماء ، يضعونها فى معترك القوى ، ويحسبون مسارها بعملية رياضية ، ان الكومبيوتر يستطيع ان يحسب مسار الاقمار الصناعية فى اجواز الفضاء ، ولكن الكومبيوتر الذى يحسب سلوك البشر - افرادا او جماعات - لم يخترع بعد . اننا نتغير لاننا نريد التغيير ، لا لان الفريق الأقوى يفرض علينا التغيير باساليب الترهيب والترغيب ، تاريخنا لم ينته - ومادمنا نعى هذا التاريخ ، حتى عثراته ونكباته ، فلسنا قوما بدائيين ، وأقل ما فى هذا التاريخ ان قيم الحضارة لاتقوم كلها على البيع والشراء ، هذا الذى يحسبه معظم الغربيين سذاجة ، نعلم نحن انه حافظ على كيان شعوبنا حتى فى احلك العصور ، مثلما جعلها تتمسك بالمثل الانسانية الرفيعة عندما كانت تملك القوة المادية ايضا .

لاشك ان الطريق صعب وطويل . ولكن اذا لم تسبقنا هذه الحضارة الغربية المجنونة ، فتدمر نفسها بنفسها ، فلن يكون غريبا ولا مجافيا لسنن التاريخ أن تستأنف الحضارة دورتها فى بلادنا تارة أخرى .

المستشرقون والمستغربون

ليس المستغربون كالمستشرقين ، المستشرقون هم ناس من الغرب يدرسون ثقافة الشرق ، والمستغربون كذلك ، ناس من الشرق يدرسون ثقافة الغرب ، ولكن الفرق بينهما هو الفرق بين حالتي الثقافتين ، كل بالنسبة إلى الأخرى ، فى عصر بعد عصر ..

عندما كانت حضارتنا قوية مبدعة ، تأخذ بلا خضوع وتعطى بلا من ، كانت مؤهلة بحكم موقعها عند ملتقى طرق العالم أن تعرف الاستشراق والاستغراب جميعا وفي وقت واحد ، فكان من أمر الثقافة اليونانية ونقلها الى العربية ما هو معروف مشهور وكان من امر الثقافة الهندية وتمثل العربية لكثير من جوانبها ما لايزال فى حاجة الى الدراسة الجادة ، وعلى الرغم من أن العقائد الهندية كانت مباينة للعقائد الاسلامية أشد المباينة فإن العالم المسلم (البيرونى) عكف على دراستها دراسة موضوعية محايدة حتى أضاف الى التراث الانساني ذلك الأثر العظيم (تحقيق ما للهند) ومع ان الثقافة اللاتينية لم يكن لها شأن يذكر فى تلك الأزمان ، اذ كانت دائما عالة على الثقافة اليونانية وكانت هذه قد انسحبت الى الشرق واستقلت بموطنها الجديد فى بيزنطة ، مع ذلك فقد وجد بين علماء المسلمين فى الاندلس من كان يعرف اللاتينية كابن حزم الظاهرى .

ثم دخلت الحضارة العربية الاسلامية ابتداء من أواخر القرن

الخامس الهجرى على وجه التقريب فى دور جديد : دور قد لايكون من العدل أن نصفه ، كما تعود المؤرخون أن يصفوه بـ « الانحطاط » ولكنه اشبه بحالة الوارث الذى استغنى بما تركه له اسلافه فلم يعد يضيف اليه جديدا ذا بال ، وفى هذه الفترة بالذات كان الغرب يستجمع قواه ليثب على مايليه من ديار المسلمين فى الشرق والغرب ، على الشام ومصر من هنا ، وعلى صقلية والأندلس من هناك ، هذا بينما كان الاسلام يدافع جموع الرعاة المغول الزاحفين من اقصى الشرق .

لم يكن الغرب المسيحى يحارب المسلمين فقط ، ولكن كان يتعلم منهم فى الوقت نفسه ، وقد يزول عجبنا من هذا التناقض اذا تذكرنا ان الصراع بين الفريقين استمر قرابة اربعة قرون (من الحرب الصليبية الأولى حتى خروج آخر بنى الاحمر من الاندلس) .. ومثل هذه الفترة الطويلة لاتنقضى كلها فى المعارك بل لابد ان تتخللها اوقات من الهدوء يمكن ان تطول وتنشط اثناءها الاتصالات التجارية وغيرها بين الطرفين المتصارعين ، ولكننا يجب أن نتذكر ايضا ان التسامح الدينى والعرقى كان سمة غالبة على الحضارة العربية الاسلامية منذ بداياتها ، وهكذا لم يبخل العرب بعلمهم على طلابه من ابناء تلك الشعوب التى كانت اقرب الى الهمجية وخصوصا بعد انحلال امبراطورية شارلمان ، وهكذا كانت مدارس طليطلة على الخصوص مصدر اشعاع قوى لأوروبا التى كانت تستيقظ ببطء من همود العصور الوسطى .

ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام بل بالتأمل العميق ، وهى أن الغرب لم يكسب شيئا من هجومه العسكرى على العالم الاسلامى ، بل ارتد عن مصر ، واضطر الى الرحيل عن الشام ، حتى انتصاره فى الاندلس عوضه سقوط القسطنطينية واندفاع الاتراك العثمانيين فى شرق اوروبا حتى النمسا ، اما الكسب الحقيقى الذى ظفر به الغرب فهو النهضة العلمية التى اقتبس جذوتها الأولى

من احتكاكه بالحضارة الاسلامية ، ومضى يغذيها وينميها ، حتى عاد الينا من جديد وقد اخذ علينا طرقنا جميعها : طريق التجارة والمال ، طريق السياسة والادارة ، طريق الصناعة والانتاج ، واخيرا طريق القوة العسكرية ايضا ، وما اشبه الليلة بالبارحة ! فقد خرج الاستعمار العسكرى من اقطار (العالم الثالث) كما يسمى ، ولكن هذا العالم الثالث مازال عاجزا عن الوقوف على قدميه ، الا بقدر ما حصل من علوم الغرب .

● ● ●

المستشرقون الأوائل هم أولئك الذين تخرجوا فى مدرسة طليطلة وغيرها من معاهد العلم العربية ، وكانوا فريقين : فريقا افاد من العلوم التجريبية التى نهج سبيلها علماء العرب ، جابر بن حيان والرازى وابن الهيثم وغيرهم ، فترجموا اعمالهم الى اللاتينية واعتمدوا عليها فى دروسهم وابحاثهم ، وفريقا تعلم العربية للطعن على الاسلام والدفاع عن المسيحية ، وهم بعض آباء الكنيسة الذين خافوا ان ينفذ الاسلام ببساطته وسماحته الى قلوب اتباعهم ولاسيما المستضعفين منهم ، ومضى الغرب المسيحى يزداد قوة بينما كان الشرق يزداد ضعفا ومرة أخرى نقول اننا نشير بالقوة والضعف الى العلم والحضارة قبل السياسة والجيوش ، وهكذا تجاوزت العلوم الطبيعية عند الغربيين ماتعلموه من العرب بمراحل شاسعة ، فلم يعد للأولى مكان الا فى كتب تاريخ العلم ، وفتن الناس بهذه العلوم لانها كانت تمدهم باسباب القوة ـ والناس تسحرهم القوة حيث كانت ـ فلم تعد المشكلة الأولى عند آباء الكنيسة هى مناهضة الاسلام ، بل مقاومة الالحاد .

كان القرن التاسع عشر هو عصر التحولات الحاسمة فى أوروبا تلقى تراث عصر النهضة وعصر التنوير فسلط العقل على كل شىء واكتشف معنى « التاريخ » فصاغ شتى النظريات عن التطور ، واخضع النصوص ـ حتى الكتب المقدسة ـ للبحث اللغوى التاريخى (الفيلولوجى) ، فظهر من نقاد الأدب ومؤرخيه من

زاحموا الشعراء والمبدعين ـ ربما لأول مرة ـ فى اهتمام القراء والدارسين وكان القرن التاسع عشر هو العصر (الذهبى) للاستعمار والعصر الذهبى للاستشراق .

وقد تعودنا ان نربط بين الاستعمار والاستشراق كما تعودنا ـ من جهة اخرى ـ ان نفرق بين سلوك المستعمرين فى البلدان المستعمرة وسلوكهم في اوطانهم ، وكلتا الملاحظتين لها اساس قوى من الحقيقة وان بدا لاول وهلة ان بينهما شيئا من التناقض فالاستشراق فى اوروبا كان يبدو ـ بصفة عامة ـ فى صورة البحث (العلمى) المحايد الذى ينظر الى الاديان كلها بمنظار واحد ، ويراقب (تطور) الأمم الشرقية ولاسيما الأمم الاسلامية نحو (القومية) و(العلمانية) بكثير من الرضى ، ورجال الاستعمار فى اقطار الشرق لم يكونوا مستشرقين بل كان الذين يعنون منهم بدراسة ثقافة البلاد المستعمرة قلة بجانب الاداريين والعسكريين القساة المحدودى الأفق ، ولكن كان بجانبهم استشراق من نوع خاص ، وهو الاستشراق الكنسى التبشيرى الذى واصل مهمة الطبقة الأولى من آباء الكنيسة المستشرقين ، وكانت مهمتهم الأولى هى الطعن على الاسلام والمسلمين .

ومع ان المسلكين مختلفان فى الظاهر فان غايتهما واحدة ، وهى (امتصاص) الشعوب الاسلامية فى حضارة الغرب ، وكأن رجال العلم ورجال السياسة ورجال الدين يعملون فى تفاهم مشترك : المجتمعات الأوروبية (المتقدمة) لم يعد من السهل على رجل الدين ان يحتفظ بمكانته فيها عن طريق الايمان الساذج ، ولكنه يستطيع أن يكسب أرضا جديدة بين الشعوب المتخلفة عن هذا الطريق نفسه ، ورجل العلم لايرى بأسا بذلك مادام الدين ـ كما يقول أوجست كومث ، هو المرحلة الأولى فى تطور العقل البشرى الذى سيصل حتما بعد ذلك الى مرحلة الايمان بالعلم و(دين الانسانية) ورجل السياسة خلف رجل العلم ورجل الدين

يضحك « فى كمه » كما يقولون او « فى سره » كما نقول نحن ، لأن الجميع يخدمون مأربه التوسعية ، ويرسخون (قيما) جديدة هى - فى واقع الأمر - اديان العصر التى استوحاها الغرب من مصالحه المادية العرقية او الطبقية ، وسماها مرة (القومية) ومرة (الديمقراطية) ومرة (الاشتراكية) .

المهم ان (المستغربين) الأوائل من قومنا - من رفاعة الطهطاوى الى طه حسين - ذهبوا الى هذه الطبقة من المستشرقين فبهروا بمنهجهم العلمى ومعرفتهم الجيدة باللغة العربية وصبرهم على البحث والتحقيق وسمتهم الوقور الرزين الذى لايختلف عمن عرفوا من جلة الشيوخ ، فعادوا وهم لا يستريبون فى انهم افادوا علما نافعا واصبح واجبا عليهم نشره بين قومهم ! اما الطاعنون صراحة على الاسلام من المبشرين واشباههم واعوانهم فلم ينالوا خيرا ، بل تصدى لهم الشيخ محمد عبده وغيره فردوا مزاعمهم الباطلة بالنقد الموضوعى الرصين .

هناك بعض الشبه - ولاشك - بين المستشرقين الأول الذين تلقوا عن العلماء العرب علم اسلافهم اليونان ، والمستغربين الأول الذين تلقوا عن العلماء الغربيين علم اجدادهم العرب ، ولكن اين الفريق الثانى من المستغربين ؟ اين رجال العلوم الطبيعية الذين لم يستطيعوا - حتى الان - ان يستأنفوا حركة علمية نشيطة فى قلب الثقافة العربية ؟

لماذا نعنى بالفكر الغربى

لماذا يجب علينا أن نعنى بالفكر الغربى ، وليس بالتكنولوجيا الغربية فحسب ؟ لقد مضى ذلك الزمن حين كان الكاتب العربى لايرضى عن نفسه إن لم يرصع مقاله بما يقدر عليه من اسماء أعجمية ، فان كان ممن يعرفون لغة اوربية فالأمر هين ، مجلد لطيف يضم مقتبسات من مختلف الآداب ، لأدباء وعظماء وقواد وخطباء وشعراء ، مرتبة حسب الموضوعات ، فى جد الحديث ولهوه ، فمهما يطلب يجد ، وان كان لايعرف سوى العربية فلا عليه إن ألف من عنده كلاما ونحله اسما أعجميا قرأ عنه أو سمع به . وأدركنا زمنا لم يقنع فيه بعض هؤلاء بالأسماء التى يعرفها الناس فاخترعوا اسماء لا وجود لها . وإن لم تقتنع فما عليك الا ان تبحث قلت : مضى ذلك الزمن ، وآراك تهم بأن تقول : ليت .. اولعل .. أو ينبغى .. ولكننى أحب أن نحسن الظن بكتابنا .

وقد آن لنا أن ننسى روعة الاسماء .. وآن لنا كذلك أن نتجاوز مرحلة التلمذة الخائفة التى تتلقى نتاج الفكر الغربى بتسليم مطلق ، ويقين تام انها لايمكن أن تسامى تلك القمم فى يوم من الأيام ، وكثير من هؤلاء التلاميذ كانوا ـ من الرهبة أو من الجهل ـ يترجمون بنصف عقل ، فتقرأ كلاما لا رأس له ولا ذيل . ونذر من المترجمين ذوى الامانة والعلم من كان يشترط على نفسه أن ينقل النص المترجم بتعليقات تتضمن شرحا أو نقدا .

وقد فترت حركة الترجمة فى العقد الأخير ، وأعنى الترجمة الأدبية بالذات ، ويدخل فيها ترجمة مايسمى الفكر ، من نقد وغيره .

ولا أرانا خسرنا كثيرا بهذا الفتور ، بل إننى لأرى حركة الترجمة النشيطة غير الرصينة فى العقود السابقة سببا مهما من أسباب الفوضى اللغوية التى لانزال نعانى منها ، فقد شاعت فى كتاباتنا واحاديثنا كلمات كثيرة لانحقق معناها ، ولانشعر بالحاجة الى ذلك ، بل لعل معظمنا أصبحوا يستلذون دورانها فى افواههم ووقعها فى آذانهم وهم سعداء بهذا الخداع البرىء .

ونرى فى الوقت نفسه اهتماما متزايدا بالعلوم والتكنولوجيا . وهذه ظاهرة صحية بدون شك ، حتى وإن بدا أننا نبالغ فيها قليلا فى الوقت الحاضر ، او على الاصح اننا لم نصل بعد الى الصيغة الصحيحة التى تناسب حاجاتنا ، ويقينى اننا لن نصل الى هذه الصيغة الا بالتعريب الكامل للغة العلم ، حتى تكون لدينا كفايتنا من القدرات البشرية على جميع المستويات ، من الفنى المتوسط الى العالم الكبير ، وبغير هذا الجهاز العلمى المتكامل لن تتحقق النهضة العلمية او التكنولوجية المنشودة . إن قضية تعريب العلوم هى قضية اليوم والغد ، ومانشك فى أن قومنا سيقتنعون بها ويسارعون الى تحقيقها فى وقت قريب .

فما بالنا إذن نتحدث عن الفكر الغربى بجانب التكنولوجيا الغربية .

إن موقفنا من هذه يختلف عن موقفنا من ذاك ، نحن مؤمنون بأننا حين نعرب التكنولوجيا الغربية نكون قد وضعنا نهضتنا القومية لأول مرة منذ مائة وخمسين عاما على بداية الطريق الصحيح ، أو على الأصح أعدناها الى هذا الطريق الذى حاول محمد على بذكائه الفطرى أن يدفع العالم العربى اليه ، ولكننا لاندعو الى « تعريب » الفكر الغربى بل نبرأ الى الله من ذلك ، لقد

دعونا الى العناية به ، والعناية التى نقصدها تشمل دراسته وترجمته وتشمل نقده ايضا .

هل يمكننا ان نتعلم من هذا الفكر ؟ اقولها صادقا مخلصا ، لا ادرى ، فلعل معظمنا يفهم من التعلم أن نحفظ بعض مايقولونه ونردده وندخله فى كلامنا ، وهذا ضرب من التعليم يجب ان نستهجنه وننفيه .

ولكن هناك أنواعا من التعلم غير هذا : هناك طرق وادوات لتنظيم الفكر ، لجمع المعلومات وترتيب الخطوات ووضع الفروض واختبارها ، وهذه تراث انسانى مشترك ، استعان فيها اسلافنا بمن قبلهم ، واخذها الغربيون عن اسلافنا ، ونمت وتنوعت بنمو الخبرات وتنوعها ، هى أشبه بالعلم والتكنولوجيا فنحن نأخذ منها بلا خوف ولا من ، ولكننا يجب أيضا ألا نأخذ منها بلا نقد . فالعلوم الطبيعية والتكنولوجية لها مطالب عملية مادية معروفة تهدينا اليها المصلحة ، وكلها ضرورية لنا مادمنا نعيش فى هذا العالم ، وهذا العصر ، فلا نحتاج فى اكتسابها إلا الى تحديد الأولويات ورسم الخطط ، والعلوم الطبيعية والتكنولوجية لاتعرف اختلاف النظريات والمذاهب ، فالنظرية التى يثبت عند الاختبار ان نتائجها أصح ، أو أن تطبيقها أيسر ، تنسخ ماعداها ، اما ما نسميه الفكر ، ونطلق على أجزاء منه اسم الدراسات النظرية احيانا ، والادبية احيانا أخرى ، فشأنه غير هذا الشأن ، فمهما تصطنع من طرق العلم وادواته فإنها تبقى موصولة بالأغراض المتوخاة منها ، وهى اغراض تختلف باختلاف المجتمعات ، وقد لايسهل تفسير اسباب هذا الاختلاف ولكنه قائم مشاهد ليس الى انكاره سبيل ، وكثيرا مانعبر عنه باختلاف الثقافات او اختلاف الحضارات . وطبيعى مادام الحال كذلك ان تختلف المذاهب فى هذه الدراسات والأعمال الفكرية اختلافا يتسع او يضيق بحسب طبيعة المادة ودرجة الاختلاف بين المجتمعات ، فتطرح مسائل مختلفة وتقدم حلول

مختلفة ، وانك لتجد امثلة واضحة من ذلك فى علم الاجتماع وعلم النفس وما أصبح يسمى الآن علم الأدب ، وكلما أوغلت فى أصول هذه العلوم وجدت نفسك أقرب إلى القلب النابض للحضارة التى انتجتها .

لعلك الآن تعيد إلىّ سؤالى : إذن فلماذا يجب علينا ان نعنى بالفكر الغربى ؟ وانى لأعلم انك تعيده الىّ استفهاما انكاريا ، فمادام الشأن فى هذه الدراسات والأعمال ان تكون نابعة من ثقافة مجتمعنا ومرتبطة بأهدافها فالاليق بنا أن نتركها لأهلها وتكون لنا دراساتنا وأعمالنا الخاصة التى تناسب مجتمعاتنا بقيمها العربية والاسلامية . وأجيبك أن الذى يمنعنا من ذلك أمور كثيرة :

أولها ماتعرفه بخبرتك من أن رؤية ما عند الغير تزيدك اقتناعا بما عندك ، إنك تكون أشد انتماء إلى وطنك وأنت فى بلد غريب ، على أن القضية ليست قضية عاطفية مجردة ، فالأشياء التى نفقد الاحساس بها بحكم العادة تكشف أسرارها لنا عند المقارنة ، وهكذا يمكن ان يكون التقاء حضارة بأخرى سببا فى إزدهار عظيم لاحداهما أو كلتيهما ، ما لم تقع احداهما - نتيجة لظروف غير مجرد الالتقاء - فى استلاب حضارى كامل تفقد فيه مقوماتها الأساسية ، وحضارة الاندلس مثال على ذلك والنهضة الأوربية كلها مثال آخر . فقد وقعت أوروبا تحت تأثير الفكر والفن العربيين - لا العلم العربى فحسب - زهاء قرنين من الزمان نضج خلالهما الوعى الثقافى الأوروبى واسترد نشاطه بعد همود العصور الوسطى فى ايطاليا بالذات التى كانت قريبة من مجال التأثير كما كانت بعيدة عن ساحة المعارك . ومالبثت أوروبا ان اكتشفت - من جديد - تراثها اليونانى الرومانى فرجعت اليه وان واصلت التلمذة للعرب فى مجال العلوم مدة طويلة بعد ذلك .

وسبب ثان يمنعنا من الاعراض عن الفكر الغربى النظرى والأعمال الغربية الأدبية : وهو أنك لاتستطيع ان تفصلها فصلا باتا

عن العلوم والتكنولوجيا التى اتفقنا على ضرورتها ، نعم إن الفكر النظرى أقرب الى الغايات والأهداف ، كما أن العلوم والتكنولوجيا اقرب الى الادوات والوسائل ، الأولى اقرب الى الفهم ، والأخيرة أقرب الى القدرة ، ولكن لاننسى أن بينهما شيئا اسمه الارادة ، وقد يكون لدى فهمى الخاص لأمر من الأمور ، ولكننى استعين ببعض وسائل الاخرين ، إذا رأيتها صالحة لتحقيقه . كذلك قد تخلق لدى القدرة ارادة لعمل شىء ما ، وبذلك يتغير مفهومى لذلك الشىء ، وانك لتدرى ان المال فى أيدى بعض الناس ربما ولد فى نفوسهم الكبر .

أما السبب الثالث والأخير فهو أن الأفكار لاتنتظر الأذن منا حتى تدخل علينا ، وقد علمت انك ربما استعرت الأداة فإذا الفكرة عالقة بها كالمكروب . ومن المكروبات النافع والضار . فينبغى أن نعرف هذا وذاك .

نحن وثقافة الغرب

لماذا ندعو إلى التعامل بحذر مع الثقافة الغربية المعاصرة ؟ انها ليست ـ بكل تأكيد ـ دعوة إلى الانكماش ، أو الانعزال عن الثقافة العالمية ، وقد وضح الآن لاشد المبغضين لثقافة الغرب ، إن هذه الثقافة تملك القدرة والتصميم على اختراق الأسوار ودك الحصون ، لقد اصبحت « الثقافة » صناعة مهمة السينما ، الفيديو ، الكاسيت ، اللعب الالكترونية ، وملحقاتها من اجهزة التسجيل والعرض الخ ، ولذلك فهى لن ترجع عن غزو كل الأسواق الممكنة والثقافة تمتزج بالتسلية دائما ـ ألم يقل ارسطو ان « المحاكاة » وهى اصل كل الفنون ، تجعل « المعرفة » لذيذة لكل انسان ، لا للفيلسوف وحده ؟ ومن باب التسلية تدخل الصناعات الثقافية الى كل بيت وتقدم السلعة المناسبة لكل ذوق .

لا اظن أن أحدا يجادل فى ضرورة التعامل بحذر مع هذه الألوان من الثقافة ، فهى اولا ألوان مكلفة ، ولا تلبث أن تتحول الى لون من التظاهر الاجتماعى ، وهنا لايقتصر استعمالها على القادرين وحدهم ، بل ان غير القادر ربما اقدم على ارتكاب المحرمات ليحصل على المال الذى يتمكن به من ارضاء رغبته او رغبة أهله فى هذه الاشياء ، وهى ثانيا : لاتغنى عن الوسيلتين التقليديتين لتحصيل الثقافة ، أعنى المعلم والكتاب ، وانما هى ـ فى أحسن أشكالها ـ وسائل مكملة . وفى أسوأ اشكالها واكثرها

شيوعا وجاذبية صارفة عن الثقافة ، لان فلسفتها هى شد الانتباه واضاعة الوقت ، وقد تكون لها وظيفتها النافعة فى حياة العامل الأوروبى أو الأمريكى الذى يقضى نهاره فى عمل دائب مرهق للأعصاب ، وقته محسوب بالدقيقة ، فاذا أوى إلى بيته كان فى حاجة إلى أن يجلس متبلدا بينما تمر امامه سلسلة من الصور الغريبة التى تشبه الاحلام ، ولكن بيوتنا لها نظام مختلف : فهى اولا مملوءة بالاطفال الذين يفترض فيهم ان يستذكروا ويعدوا واجباتهم المنزلية ، وهى ثانيا تحتوى على جيل او جيلين ممن فرغوا من الدراسة ، القليل منها فى معظم الاحيان ، أولم يعنوا بها أصلا ، وهؤلاء يشاهدون التليفزيون او الفيديو وهم فى حالة وعى وتنبه ، فيشكل ثقافتهم وذوقهم ، بأضعاف مايفعل بالمشاهد الأوروبى أو الأمريكى ، اما الاطفال والشباب فكيف يدفعون عن هذه المتعة التى يستأثر بها الكبار ، واذا دفعوا عنها فكيف تصفو عقولهم للنظر فى كتبهم ؟

ان هذه الاجهزة الثقافية قد دخلت على المجتمع الغربى وهو لايعانى من الأمية ، ولا من البطالة المقنعة ، وقد تأصلت فيه عادة قراءة الكتب ، فلا يخلو منها سوق « سوبر ماركت » لأنها سلعة يشتريها الرجل والمرأة والصغير والكبير ، لاجرم وجدت هذه الاجهزة مادة ثقافية غنية تستطيع تقديمها بصورة افضل ، كما وجدت جمهورا يمكن ان يستمتع بهذه المادة الثقافية ، ولايطلب التسلية الفجة دائما .

ولكن هذه السلع الثقافية المستحدثة ليست هى كل ما فى الثقافة الغربية المعاصرة ، ولا أهم ما فيها ، فهناك الثقافة الرفيعة الجادة ، ثقافة الخواص،، التى تتمثل فى النصوص الادبية والنقدية الممتازة ، ومايتصل بها من الدراسات الانسانية ، وهذه تدرس فى الجامعات ، وتعقد لها الندوات ، وتدور حولها المناقشات الجادة العميقة على صفحات المجلات الثقافية الراقية ، او

النشرات العلمية المتخصصة ، هذه ثقافة محترمة جدا ، قد لانطمع ان يكون لدينا مثلها في وقت قريب ، فكيف ندعو الى « الحذر » فى التعامل معها ، الا ان يكون هو الخوف من أن نغطس فيها فلا نستطيع أن نطفو ؟

ثم ماذا نعنى بـ « الحذر » فى تناول مثل هذه الدراسات ؟ هل نعنى ـ مثلا ـ اننا ينبغى ان نكتفى بالالمام بها الماما يسيرا ، كلمة من هنا وكلمة من هنا كالملح فى الطعام (واكثرنا يفعل ذلك) ؟ وهلا سألنا انفسنا لماذا لاتطيق معداتنا الا القليل من مثل هذه الدراسات الجادة ، والقوم يبيتون فيها ويصبحون !

أم ترى أن مثل هذه الدراسات يمكن ان تفسد عقول متقفينا ، كما يمكن أن تفسد وسائل الثقافة الحديثة حياة عامتنا ؟ أن خواص المثقفين مطالبون بما لايطالب به العامة ، العامة ينبغى أن تتخير لهم الوان الثقافة التى تنفعهم ، وتبسط لهم بشتى انواع التبسيط وتقدم فى مختلف الأشكال التى تثير اهتمامهم وتنشط عقولهم . اما خواص المثقفين فهم مهندسو هذه الثقافة الذين يبتكرون قواعدها الاساسية بحسب حاجة شعوبهم ، فلا يجوز أن يكونوا مجرد مستوردين او ناقلين ، ولا أن يتركوا المستوردين والناقلين يغمرون سوق الثقافة العامة بالبضائع الفاسدة ، ولا أن يجهلوا شيئا مما بلغه نظراؤهم فى الأمم الأخرى ، فتأتى ابتكاراتهم وتصميماتهم ركيكة متهافتة ، وبذلك تسقط فى المنافسة ، ويشمل « الاجتياح الثقافى » الخاصة والعامة . بعبارة أخرى ، ان خاصة المثقفين ـ قادة الفكر ـ مطالبون بأن يعرفوا كل ما لدى نظرائهم الغربيين ، ولكنهم مطالبون أيضا بما هو أكثر من ذلك : أن ينظروا اليه نظرة مستقلة ، ليخلصوا الثابت من العارض ، ما يضىء حقيقة مشتركة ، ومايعبر عن مشكلة حضارية خاصة ، بعيدة الجذور فى التاريخ ، أو منتشرة الفروع فى الحاضر ، وهذه مهمة شاقة بدون شك ، وقد يخيل الى البعض منا انها مستحيلة ، فهل يمكن ان نبلغ

من معرفة علوم القوم ، وقد تأصلت فى مؤسساتهم العلمية ، وتجذرت فى أفكارهم ومناهجهم ، ما لايعرفون هم انفسهم ؟ وجوابنا ان البعيد يرى ما لايراه القريب ، فالمسافة الثقافية التى تفصل بيننا وبينهم ، وهى - من جهة - سبب تأخرنا وتقدمهم ، تصبح من جهة أخرى ميزة لنا عليهم ، انهم مضوا إلى آخر الشوط ، وما عادوا يستطيعون الرجوع ، ولايبصرون اختلاف السبل ، بل ربما نسوا الغاية ، أما نحن فمازلنا عند المفترق ، نستطيع ان نتخير الطريق ، ونلمح نهايته .

هذا هو « الحذر » حين نتحدث عن امور الثقافة العليا ، وهو مانطالب قادة الفكر فينا ان يلتزموه . حذر لايدعو إلى الانزواء ، « الذى اصبح مستحيلا » بل الى النزول الى الساحة بعيون مفتوحة ترقب كل شيء : ترى مايجول امامها كما تلتقط ماهو قائم فى الأركان ، وتحيط الساحة كلها ، وماوراء الساحة ايضا ، بالنظر الشامل .. ليس هذا حلما ولا امرا خارقا للطبيعة ، بل هو قضية « حياة أو موت » وهو كذلك سنة الله فى كل حضارة جديدة تنبعث لتجدد شباب العالم ، وقد تحققت ، على نحو رائع ، فى الحضارة الاسلامية الأولى .

ولعل مما يسهل هذه المهمة علينا ان الحضارة الغربية اصبحت منقسمة على نفسها ، فالفريقان يكشف كل منهما عوار الآخر ، والعقلاء الذين لاتطمئن عقولهم الى فريق منهما لا يستطيعون ان يتبينوا طريقا آخر ، وكأنهم أمام خيار بين نقيضين منطقيين لايمكن الجمع بينهما ولا تجاوزهما . وينسون ان هذا الخيار ربما كان خيارا خاطئا أو موهوما من اساسه ، وسأقدم مثالا لهذا المأزق الحضارى من النقد الأدبى ، ان النقاد الغربيين فى هذا العصر فريقان ، فريق النقاد الايديولوجيين ، اى الذين يصدرون عن تصور معين للانسان أو للمجتمع ، يفسرون على ضوئه الاعمال الادبية ، وفريق النقاد البنيويين الذين يقبلون على الاعمال الادبية

مباشرة ، غير معتمدين على اطار نظرى مسبق ، لكن مسلحين بمنهج معين فى تحليل النصوص ، وقد اكتسب هذا الفريق شهرة كبيرة فى السنوات الأخيرة بالذات ، وفتن به عدد غير قليل من خيرة ادبائنا ونقادنا الشبان ، حتى تشيعوا له ، وما عادوا يقبلون سواه . احد اعمدة هذا النقد البنيوى فى فرنسا ، تسفيتان تودوروف ، اصدر كتابا بعنوان « الترميز والتفسير » (١٩٧٨ ـ وهذا التاريخ يعنى أن الحماسة الشديدة للبنيوية كانت قد بدأت تفتر فى فرنسا امها ، بينما كانت هى نفسها « آخر صيحة » ـ كما يقال ـ تأتينا من الغرب) . وفى هذا الكتاب محاولة جادة وعميقة للرجوع بهذين الاتجاهين فى تفسير النصوص الى اصولهما فى الثقافة الغربية .

وأرجو الا يدهش احد اذا علم ـ هذا على الاقل مايقرره تودوروف ـ ان تلك الاصول ترجع الى تفسير « الكتاب المقدس » عند احبار اليهود والنصارى ومعلوم ان فى اسفار هذا الكتاب كما تناقلوها نصوصا لايعقل ان ترد فى كتاب سماوى ، هذا من جهة وأن العقيدة اليهودية ثم المسيحية ـ من جهة اخرى ـ لم تبنيا على هذه النصوص وحدها ، بل دخلتهما عناصر كثيرة من مصادر متعددة ، ومن ثم اضطر الاحبار إلى أن يؤولوا النصوص كى تتفق مع هذه العقائد (على نحو مافعلت الباطنية عندنا) .

كانت هذه هى الصورة الأولى « للتفسير الايديولوجى » للنصوص ، وقد استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر ، مرتكزة على سلطة الكنيسة من ناحية ؛ وعلى سلطة الاقطاع من ناحية : هذا يملك الرقاب ، وتلك تملك الأرواح ، فلا غرابة ان تتحرك العقول داخل اطار مفروض من الفهم الكنسى ، ثم حدث الانقلاب حين قامت المجتمعات الأوروبية الجديدة فى المدن التجارية التى اعتمدت على حرية الفرد ، فأصبح للفرد ان يعمل عقله فيما يقرأ ، بشرط أن يلتزم بمنهج لغوى دقيق ، حتى لا يحرف الكلم عن

مواضعه ، وفى ختام البحث يطرح المؤلف هذا السؤال . المهم : كيف امكن ان يوجد المنهجان المتعارضان فى تفسير النصوص فى الوقت الحاضر ، مع ان كل واحد منهما ، كما سبق أن أوضح ، يتفق مع وضع تاريخى معين ؟ ودون أن يجيب عن هذا السؤال العويص ، يتركه الى سؤال « شخصى » قريب منه ، وهو : كيف امكنه هو أن « يفسر » هذين المنهجين المتعارضين ؟ ويجيب بأن كل منهج يستند الى فكرة : المنهج الايديولوجى يستند الى الفكرة الجماعية ، والمنهج البنيوى يستند الى الفكرة الفردية ، والفكرتان توجدان معا فى عالم اليوم . و« قدرى التاريخى » ـ هكذا يقول ـ « هو أن أظل خارجا عنهما ، كما لو أن « الخارج » لم يعد له « داخل » .. وإن أرى حجة كل من الفريقين المتعارضين ، دون ان أستطيع الاختيار بينهما ، وكان خاصية حضارتنا هى تعليق الاختيار ، وأن نحاول فهم كل شىء دون ان نفعل شيئا .

التغيير

لا اعرف ان كان موضوع « التغير الحضارى » من بين الموضوعات التى تدرس فى اقسام الاجتماع عندنا ، ولكننى لا أذكر أنى رأيت كتبا كثيرة خصصت لبحثه ، بل الأصح أنى أذكر بالتحديد كتابا واحدا ألفه ـ منذ أكثر من عشر سنوات ـ الدكتور محيى الدين صابر أمين المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة الان ، والشىء المحقق على كل حال هو أن أساتذة الاجتماع عندنا لم يستطيعوا بعد أن يشغلونا بموضوع التغير الاجتماعى ، لا على مستوى الجمهور العريض من القراء ، ولا على مستوى المجلات الثقافية المتخصصة وعندنا منها اليوم عدد كبير فى العالم العربى ، اننى اتساءل : هل حدث ان خصصت « عالم الفكر » مثلا ، ولعلها اقدم هذه المجلات فى العالم العربى ، عددا من اعدادها الخاصة لمشكلات التغير الحضارى ، كما خصصت « للاغتراب » مثلا ، ولست ادعى الاحاطة بكل ماينشر ، ولا أدعى ان كل مايمر عليه نظرى من عناوين يبقى فى ذاكرتى ، لذلك اتمنى ان اضيف الى معلوماتى فى هذه الناحية مايتفضل علىّ به القراء والكتاب ، ولكننى استطيع ان اقرر شيئا واحدا بكثير من الاطمئنان : وهو أن علماء الاجتماع عندنا لم يستطيعوا (ولو انهم اهتموا لاستطاعوا) أن يجعلوا مشكلة التغير الحضارى من المشكلات الظاهرة فى وعى الانسان العربى العادى ، ولعل الحقيقة التى لانزال نلف حولها وندور هى أنهم مشغولون بأمور

أخرى وأن فى مقدمة هذه الأمور تعريفنا بنظريات علماء الانثروبولوجيا والاجتماع فى الغرب (لا الوهم وحدهم ، نحن أيضا نفعل مثل هذا فى النقد والأدب) ، وقد آن لنا أن نتجاوز هذه المرحلة ، معاذ الله أن أدعو إلى الانغلاق ، فالثقافات تنمو وتزكو بالتطعيم المستمر ، وكل من له ادنى اتصال بالثقافة الغربية مثلى يعلم كم تأخذ أوروبا من أمريكا وكم تأخذ أمريكا من أوروبا ، ولكن الفرق بيننا وبينهم هو أن أوضاعهم الثقافية والحضارية متقاربة ومشكلاتهم متقاربة ، فتبادل التأثير والتأثر بينهم خصب ومفيد ، اما نحن فلابد لنا ، شئنا أم لم نشأ ، من أن تكون لنا ثقافتنا الخاصة لان لنا مشكلاتنا الخاصة ، انفتاحنا على ثقافاتهم شىء حسن ، ولكن انفتاحنا على ثقافاتنا نحن هو ـ بلا شك ـ احسن ، ولم يعد لنا خيار : اما أن نبنى ثقافتنا الخاصة وأما أن نذوب فيهم ، اما ان تكون لنا مدارسنا العربية فى الأدب وعلم اللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس وأما أن يظل ماعندنا صورة ممسوخة مما عندهم .

قد يبدو انى ابتعدت عن موضوع التغير الحضارى الى موضوع آخر ، وهو موضوع النقل والابتكار ، ولا أظننى بحاجة الى الاعتذار مادامت فكرة النقل والابتكار تلاحقنا أينما توجهنا ، ومع ذلك فالواقع انى لم أبتعد عن موضوعى الأصلى ، ان موضوع « التغير » هو من الموضوعات الحيوية ـ ان لم يكن أول هذه الموضوعات ـ التى يضعها الواقع أمام انظار الباحثين ، ولذلك يجب أن نهتم به حتى يصبح « علما » من العلوم الانسانية الرئيسية ، ان العلوم تنشأ وتنمو ويطويها الزمن . بحسب حاجات البشر ، واذا كنت قد سمعت ـ ايها القارىء الكريم ـ عن « علم المستقبل » أو مايسمونه « الفيوتشرلوجى » فى الغرب ، واذا كنت قد سمعت ان للمهتمين بهذا العلم جمعية كبيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فلماذا لاننشىء نحن « علم التغير » أو نطوره ، وحاجتنا الى تأمين التغير وتوجيهه ، والتحكم فيه أشد من

حاجة القوم الى تأمين المستقبل ؟ ولكننى لا أعجب اذا انطلقنا وراءهم ، علماؤنا يترجمون مايكتبه علماؤهم عن عالم المستقبل ، ثم يجمعون البيانات عن بلادنا ـ بحسب ماتعلموه منهم ـ ثم يترجمونها لهم مرة أخرى ليغذوا بها ابحاثهم « العالمية » وجها لنا يتشدقون « بالمستقبلية » .

أن البيانات التي يجمعها العلماء تخضع لنظام يخضع بدوره لما يسمى المنهج العلمى ، والمنهج العلمى ثمرة زواج بين المنطق أو العقل من ناحية وبين الموضوع الذى يراد درسه من ناحية أخرى ، ولكن تحديد الموضوع لايتأتى إلا من خلال ، « وجهة نظر » اى من خلال مسلمات معينة ، يحكمها الواقع والحاجة قبل أن يهيمن عليها العقل والمنهج .

والقليل الذى قرأته عن « التغير الحضارى » فى اللغة العربية مكتوب ـ كما يبدو لى ـ من وجهة نظر غربية (أتمنى ان أكون مخطئا) ولو ان المؤلفين المترجمين العرب قد تجنبوا ـ مشكورين ـ كلمة عربية قاسية ، يستعملها المؤلفون الغربيون فى هذا السياق ، وربما كانت أدل على مرادهم من كلمة « التغير » وأعنى بها « التحضر » أو « التحضير » .

فالمسألة فى نظرهم لاتعدو أن تتخلى الشعوب المتخلفة عن أسلوب حياتها وتقتبس اسلوب حياتهم . وهذا موضوع سليم جدا للعلم من وجهة نظرهم ، فهم مضطرون للتعامل مع هذه الشعوب المتخلفة ، ولكى يكون هذا التعامل سهلا ينبغى ان تكون قواعد السلوك واحدة أو متقاربة . فمن من الفريقين يجب ان يكتسب قواعد السلوك من الاخر ؟ اما ان يكتسبوها منا فهذا أمر لايمكن النظر فيه، لانهم هم الأرقى ، (الاستثناء الوحيد هم أولئك البوهيميون او الهيبيون الذين يذهبون الى الشرق امعانا فى رفضهم لحضارة قومهم ، ولكنهم لايكتسبون الا قشور الحضارات

شرقية ، فهم كائنات ممسوخة كالشرقيين الذين يحاولون ان ظهروا بمظهر الغربيين) .

اذن فالأمر الطبيعى هو أن نبحث كيف تتم عملية اكتساب لشعوب المتخلفة لاساليب الحياة الغربية ، وسوف يساعدنا البحث لعلمى فى هذا الموضوع على ضبط الظاهرة والتحكم فيها مصلحتنا .

فههنا مسلمة وهى أن الشعوب المتخلفة التى تتطلع الى اللحاق بركب الحضارة الغربية (ألهذا وصفوها بأنها « نامية » ؟) راغبة رغبة عميقة وأصيلة فى اكتساب قواعد السلوك المتعارفة عند الغربيين ، ولأن هذه مسلمة عندهم فهم لايراجعونها ، ولانهم لايراجعونها فهم لايزالون يصطدمون بنا كل حين ، على الرغم من مناهجهم العلمية وتعبهم (وتعبنا معهم) فى جمع البيانات . والأولى لنا ولهم أن نترك مسلمتهم الساذجة وأن ندرس التغير على طريقتنا .

العربى الصانع

مما يجعلنا نعتز بمتاحف التراث الشعبى فى هذا البلد خاصة ، البلاد العربية عامة ، أنها تقيم الدليل المحسوس على أن الإنسان فى هذه الجزيرة وفى سائر الأوطان العربية كان دائماً لايزال إنسانا صانعا ، ولم يكن كما زعم أعداؤه بين تاجر وراعى غنم ، وآبر نخل ، ولكنه إلى جانب ذلك صنع كل ما يمكن أن يصنع من كل ما وجده فى بيئته ، صنع من أصواف الأغنام وأوبار الجمال كساء وغطاء وفرشا ، وصنع من سعف النخيل سلالا ومن جريدها أقفاصا ، بل (حفظ) ألبان الماشية فجعلها أقطا وحفظ لحومها جعلها قديداً .. بل إنه كان صانعا واسع الحيلة شديد المهارة كما كانت بيئته محدودة الموارد قليلة العطاء ، حتى فى تلك المواطن التى تعد أوفر حظا من غيرها كأرض مصر مثلا ، فأرض مصر فقيرة فى أشجارها ومع ذلك فقد كانت دائما مركزا مهما لصناعة الأثاث ، ومازلت أذكر أنى وقفت مرة فى المتحف المصرى أتأمل كرسيا عجيب الصنع متين التركيب فقال لى رفيقى وكان متخصصا فى التاريخ المصرى القديم : أتعرف أن هذا الكرسى مصنوع من خشب الجميز ؟ ومع ذلك فهو كما تراه لم ينخره السوس ، ولم يتشقق ، ولم تظهر فرجة واحدة بين أجزائه ، هذا مع جمال تصميمه الذى يتعلم منه صناع الأثاث فى عصرنا هذا . وشجرة الجميز ـ إن كنت لا تعرف ايها القارىء ـ شجرة مصرية صميمة ،

الرياض ١٩٨٥/١/١٧

لم يكن يخلو منها شاطىء ترعة ، يمكن أن ينعقد تحتها مجلس فهى ممتدة الأغصان وارفة الظلال ، وجذعها السميك متكأ عريض لعدد من الناس .. ثم إن لها ثمرا وفيرا رخيص الثمن - إذا بيع - فيه حلاوة ورى (شجرة الجميز لا تكاد ترى الآن فى الريف المصرى فقد أصابها ما أصاب الأشجار قبلها من قطع وحشى همجى) .. المهم أن هذه الشجرة الطيبة المعطاء هى من أقل الأشجار صلابة ، اذا تسلقتها يوما - وفرضنا أنك رجعت طفلا - فحذار حذار أن تعتمد على فرع من فروعها الهشة .. هذه هى الشجرة التى صنع منها الصانع المصرى القديم روائع قطع الأثاث ! .

وتقرأ عن تنيس ، المدينة التى اكلها البحر شمالى دمياط ، أنها كانت تنتج أصنافا من النسيج توزن بالذهب وتصدر إلى جميع أنحاء العالم المعروف ليقتنيها الملوك والأمراء ، أما الحرير الدمشقى فيكفى أن اسمه انتقل معه إلى جميع اللغات الأوربية الحديثة .. كما انتقلت السيوف الدمشقية والصلب الدمشقى والمصنوعات المعدنية الدمشقية الدقيقة المرصعة .

من حسن الحظ أن المتاحف لاتزال موجودة واننا لسنا أبناء الأمس .

ومع ذلك فإن الانسان يتغير ، وربما تغير إلى الأحسن وربما تغير إلى الأسوأ ، وإذا نظرنا إلى مكانة الحضارة العربية الإسلامية فى العالم القديم ومكانتها فى العالم الحديث فلا أظننا سنختلف فى أن الانسان العربى تغير إلى الأسوأ من نواح كثيرة على هذا المدى الطويل ، ومن ناحية الصناعة بالذات كان أسوأ (تغير) لحق بالإنسان العربى هو أنه لم يتغير أى أنه ظل يتلقى الحرفة كابرا عن كابر ، لا يجدد فيها ولا يضيف إليها بينما كان الآخرون يبتكرون ويضيفون ، ومن هنا استطاعوا أن يهزموه بسهولة ، وحولوه إلى مستورد بعد أن كان مصدرا .

أما إذا قربنا النظرة وضيقناها ، ولنقل أننا سننظر إلى حال (العربى الصانع) خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة فقد

يختلف الرأى ، فلاشك أننا تعلمنا الكثير من الصناعات التى سبقنا إليها الغربيون ، وأقمنا الكثير من المصانع ، وعادت بعض مصنوعاتنا تعبر البحار إلى أقطار بعيدة ، ولكن الحصيلة العامة هى أننا تحولنا إلى مستهلكين ، وأن هذا التحول يزداد ولا يقل برغم كل ما نقوله عن التكنولوجيا واستيراد التكنولوجيا ، وبرغم كل ما ننشئه من المصانع ومعاهد التدريب المهنى . وأنا لا أتكلم الآن عن موازنة الاستهلاك والإنتاج أو الاستيراد والتصدير فهذه مشكلات اقتصادية ، مشكلات سلع وأثمان ، وأنا إنما اتكلم عن الإنسان ، والذى يعنينا أكثر من السلع وأثمانها هو من يصنع هذه لسلع ، أو هذا ما يجب أن يكون ،ولهذا فإن اختلال الموازين لاقتصادية يرعبنا من حيث دلالته على التغير الذى أصاب الإنسان. أكثر مما يرعبنا من حيث هو .

لماذا حدث ذلك ؟

أعتقد أن هناك سببين رئيسيين : السبب الأول هو الغزو التجارى أو الاستعمار الاقتصادى ، فمعلوم أن الاستعمار الغربى فى أفريقيا أو الشرق الأقصى بدأ بمراكز تجارية ، ثم جاءت الجيوش لتحمى هذه المراكز ، أما فى الشرق الأدنى أو الأوسط ، أما فى شرقنا العربى والإسلامى فلم يكن الاستعمار الاقتصادى غالبا فى حاجة إلى مراكز أو جيوش ، لقد ضمن حرية التجارة ، وحصل على امتيازات للرعايا الأجانب ، وبذلك استطاع أن يحطم صناعاتنا الوطنية التقليدية بدون عناء وحول أقطارنا الى مصادر خامات لمصانعه وأسواق لمصنوعاته ، كل هذا نتيجة لانبهارنا بتقدمه ورغبتنا الملحة فى تقليده !

ولأن هذا هو الوضع الأمثل للاستعمار الاقتصادى ، ولأن لاستعمار الاقتصادى لم ينته بانتهاء الاستعمار العسكرى بل ازداد قوة وشراسة واتخذ أبعادا عالمية ، فسيظل حريصا على بقاء هذا الوضع ، وسيظل كل ما يقال عن تصدير التكنولوجيا غشا وخداعا ، وسيظل (حوار الشرق والغرب) مراوغة وكذبا !

كيف نتخلص من هذا الحصار ؟ إن الحديث يمكن أن يطول حول الطرق والوسائل ، ولكن المهم هو أن توجد الرغبة اولا فى التخلص منه ، أن توجد لدى الإنسان العربى الرغبة فى أن يعود (إنسانا صانعا) كما كان فى سالف أيامه . ولذلك فإن السبب الثانى فى التغير الذى حدث لنا خلال هذه الفترة الأخيرة يبدو لى اخطر السببين ، لأنه سبب لم يفرض علينا من الخارج بل سعينا إليه بأنفسنا .

ويتلخص هذا السبب فى أن كثيرا من النظم السياسية التى تسمى نفسها (شعبية) ارادت أن تتحبب إلى الجماهير بوسيلة لا تكلفها كثيرا أو لا تكلفها شيئا ، فزعمت أنها تحقق المساواة الكاملة حين تفتح الأبواب لكل الراغبين فى التعليم حتى يحصلوا على شهادة عالية ، وبما أن الرغبة شىء والاستعداد الفعلى شىء آخر فقد شحنت الكليات النظرية بجموع هائلة لم تتعلم علما نافعا ولا حتى غير نافع وخرجت ولا بضاعة عندها إلا القشور مما يقال ويعاد فى مدارسنا وجامعاتنا وهو ـ بالطبع ـ قشور القشور من الثقافة الغربية .

هذه هى القوة البشرية الصانعة المبدعة حولتها الاعيب السياسة إلى قوى عاطلة تسمى رسميا ومن باب التفاؤل : (القوى العاملة) !

وضع مفزع بدون شك ولكنه وضع موقوت لأنه نتج عن أسباب موقوتة ، سواء أكانت هذه الأسباب منحصرة فيما ذكرناه أم كانت هناك أسباب أخرى مثلها أو أقوى منها ، المهم أنه لا يوجد على الإطلاق ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإنسان العربى أو الإنسان المسلم ليس بطبعه إنسانا صانعا ، فهذا الاعتقاد هو الذى يمكن أن يدمرنا . ولنتذكر أن ما هو (موقوت) يمكن أن يصبح ثابتا إن لم نتحرك لتغييره . فلنحذر أن نستنيم لهذه الكلمة فإن (الموقوت) لا يرتفع من تلقاء نفسه ، وهذا (الموقوت) بالذات قد طال علينا

الوقت جدا حتى بدا لكثير من الناس أنه الوضع الطبيعى .

إن الذين يبيعوننا (تكنولوجيا) عتيقة تافهة بأغلى الأثمان ويحبسون عنا أسرار التقدم التكنولوجى الحقيقى فى خزائن حديدية محتاجون إلى أن يبرروا لأنفسهم - ولنا - عملهم هذا بأننا لا نميل بطبعنا إلى العلم أو التكنولوجيا ، ولن يعوزهم الدليل فى جمودنا العلمى فترة طويلة من الزمن .. يقول برنارد لويس - وهو يخاطب جمهورا من الأمريكيين لاشك أن معظمهم إن لم يكونوا جميعهم سيذهبون للعمل فى (الشرق الأوسط) :

« لقد احتاج الصحفيون ورجال القانون كما احتاج النمط الجديد من الضباط والموظفين إلى نمط جديد من التعليم غير التعليم الدينى والأدبى الموروث .. فكان غذاؤهم الأساسى هو اللغات الأوروبية والآداب الأوروبية والتاريخ والجغرافيا والقانون ، وأضيف إليها حديثا الاقتصاد والسياسة ، وكانت معظم هذه الموضوعات جديدة وغريبة ولكنها كانت مألوفة من حيث إنها جميعا أدبية يمكن تعلمها ثم حفظها من الكتب والمحاضرات ، وبذلك سهل إدخالها فى طرق التعليم التقليدية التى تعتمد أساسا على التلقين من قبل المعلم والحفظ من قبل الطالب .

« أما العلوم العملية والطبيعية فكان أمرها مختلفا ، لقد ضمرت التقاليد العلمية الإسلامية العظيمة التى كانت تقوم على البحث والتجريب وماتت منذ زمن طويل ، وأصبح المجتمع ميالا بقوة إلى مقاومة الروح العلمية ، وكان ثمة عائق آخر مهم وهو الموقف الاجتماعى المتأصل نحو السلطة والعمل والوجاهة ، ذلك الموقف الذى يجعل المسلم حتى اليوم سائقا ماهرا جريئا ولكنه ميكانيكى عنيد متخبط »

لا ينبغى أن نغضب إذا وجدنا كثيرا من الأجانب يحملون مثل هذه الصورة عنا ، فبعضنا - ولكن صرحاء - يقرونها ولو بينهم وبين أنفسهم ، لن يفيدنا أن نتجاهل الحقائق التى لا تسرنا ، ولكن الذى يفيدنا حقا أن نعرف كل الحقائق عن أنفسنا ، وسنجد أن

كثيرا منها مرض ومشجع ، ليس فقط تلك الحقائق القديمة التى اعترف بها برنارد لويس بل بعض الحديثة أيضا ، لقد نسى برنارد لويس أو تناسى - ويجب ألا ننسى نحن أبدا - أن الاستعمار وجّه ضربة مميتة إلى تقدمنا العلمى حين أغلق المدارس الفنية التى أنشأها محمد على وجعل التعليم فيها بالعربية ، وأوقف نشر النصوص العربية القديمة والكتب الحديثة المترجمة فى العلوم المختلفة ، وأعطانا بدلاً من ذلك كله كليات ومدارس نظرية فنية قليلة هزيلة تقدم للطلاب العرب قشور العلم باللغة الانجليزية أو الفرنسية .

كيف يكون « التقدم »
سـبيلا للدمـار

في عهود البداوة كان يمكن أن تغير قبيلة على قبيلة فتغنم بعض أموالها ، أو تأسر بعض رجالها وتسبى بعض نسائها ، أو تطردها من اراضيها وتنزل فى منازلها . وكانوا ايضا يتصالحون ، ويتبادلون الأسرى ، ويعقدون المعاهدات ، ويلجأون إلى التحكيم حين يتعذر عليهم الاتفاق فيما بينهم ، بهذا حدثنا التاريخ القديم والآداب القديمة ، وبهذا حدثنا الأنثروبولوجيون الذين درسوا أحوال الشعوب الرعوية فى أواسط أفريقيا وغيرها من أجزاء العالم التى لم تنفذ إليها الحضارة الحديثة إلا فى وقت قريب .

فهل ترى الأمر اختلف بالنسبة الى هذه « الحضارة الحديثة » ؟

أنت خبير بما فعله « المستوطنون » الفرنسيون فى أرض الجزائر ، حين تملكوا الساحل الخصيب المواجه لأوروبا ، وراحوا يدفعون أهل البلاد نحو الصحراء ، وأنت خبير بما فعله ويفعله « المستوطنون » البيض فى جنوب أفريقيا ، الذين انتزعوا البلاد من أيدى أهلها وحولوهم إلى أجراء وخصوهم بأشق الأعمال فى المناجم وغيرها ، وأنت خبير ولاشك بما يفعله الصهاينة فى أرض فلسطين ، ولكنك ربما تنسى أو تتناسى أن ما فعلوه ويفعلونه لم يكن ليتم إلا بمعونة أو تشجيع أو مباركة أو موافقة أو رضى من دول « الحضارة الحديثة » .

الذى اختلف فى جميع هذه الأحوال هو الحجم فقط .
كان الصراع بين قبيلة وقبيلة ، وهو اليوم بين دولة قوية وا ضعيفة ، كانت الجيوش تقدر بالمئات ، وهى اليوم تقدر بالأل وعشرات الألوف ، كان السلاح يقتل فردا أو أفرادا ، وهو الي يفتك العشرات والمئات ، بل أصبحت « دول الحضارة الحديثا تملك من السلاح ما يكفى لقتل عشرات الألوف ومئات الألوف ، ا يمنعها من استعماله ضد بعضها البعض إلا الخوف ، ولايمنعها ا استعماله ضد الشعوب الضعيفة إلا أنها لاتريد افناء ه الشعوب ، وإنما تريد استعبادها .
هذا هو « التقدم » الذى حدث : تقدم فى الأدوات ، ينتج ء ضخامة فى الحجم وزيادة فى الكم .. حجم ماذا ؟ وكم ماذ يهم !
فلو اردنا أن ننصف الحضارة الحديثة لقلنا إنها أنتجت ا أيضا أشياء من قبيل الطائرة الجامبو .. لعلك نظرت مرة إلى مئا الركاب المحتشدين فى صالة الانتظار استعدادا لركوب الطائر لعل عقلك تردد لحظة أو لحظات قبل أن يصدق أن هؤلاء جم بأمتعتهم التى تركوها قبل دخولهم سيصبحون بعد دقائق محمول على متن الهواء ، يضطجعون فى كراسيهم ، ويؤتون بالط والشراب ويقرأون الصحف ، ويقطعون مئات الأميال فى السا الواحدة وهم ينظرون من النوافذ ويخيل إليهم أن الطائرة لا تت . هذه نعمة عظيمة بلا شك ، ولكن يحسن بك أن تتذكر أيضا مثل هذه الطائرة قد تحمل ولا تزال تحمل الدبابات والمداف بعضها يستعمل للدفاع عن الحقوق وبعضها يستعمل لتثبيت دعا الظلم .
إذن فقد تضاعفت القدرة على الخير كما تضاعفت القدرة ء الشر ولكن الإنسان مازال عاجزا ـ كما كان دائما ـ عن أن ي وحده إلى طريق الخير ، بل لعله أصبح اميل إلى الشر ، من ح إن الهدم أسهل من البناء دائما ، والسم أسرع مفعولا من الدوا

وحياة الانسان يقضى عليها فى دقائق ، ولكنها لا تظهر إلى الوجود إلا فى تسعة أشهر .. وعندما ينجح الإنسان فى إحداث أثر ما ، يشعر بالسرور لنجاحه ، مهما يكن الأثر ، وإنما يزداد السرور بالنجاح على حسب ضخامة النجاح وسرعة ظهوره ، وهكذا يبدو أن إنسان العصر الحديث أصبح إنسانا تسكره القوة ، وتخنق فيه بقايا الضمير . وإلا فكيف يعقل أن ينفق الانسان آلاف الملايين استعدادا لحرب فضائية قادمة ، بينما يتردد فى تخصيص بضع عشرات لإطعام ملايين الجائعين فى هذه الأرض ؟

أقصى ما يمكننا أن ندعيه ـ إذا كنا متفائلين ـ هو ان إنسان الحضارة الحديثة ليست أسوأ ـ أو ليس أسوأ كثيرا ـ من إنسان الحضارات القديمة ، أو حتى ممن نسميه الإنسان الهمجى ، أنا شخصيا شعرت بشيء من الاطمئنان أول ما قرأت الصفحات الأولى من جمهورية أفلاطون ، حيث يصف المجتمع الأثينى فى فترة انحلاله ، حين تدهورت الأخلاق ، وضاعت القيم ، وأصبح الناس جميعا عبيدا « للدراخمة » . ولعلك أنت تشعر باطمئنان أكثر ، بل بشيء من الرضى عن النفس ، حين تتذكر أن من الهمج من يمارسون تلك العادة البشعة ، عادة أكل لحوم البشر ، ولكننى ارجوك ألا تكون مسرفا فى التفاؤل فأنت لم تحصل بعد على إحصائيات لحوادث القتل الفردى ـ ودعنا من القتل الجماعى ! ـ لدى هؤلاء الهمج ، مقارنة بنظائرها لدى الأمم المتمدنة ، وإلى أن تحصل على مثل هذه الإحصائيات لا يحق لك أن تصدر حكما فى المسألة ، لأن أكل لحوم البشر عادة بشعة فحسب ، أما الجريمة الحقيقية فهى القتل ، وقد تذكرت كلمة قرأتها لأحد الأنثروبولوجيين الذين درسوا أحوال هذه الشعوب : أنهم على درجة عالية من رقة العواطف ، فإذا رأيت أحدهم يجلس طفله فى حجره ويلاعبه لم تستطع أن تصفه بالقسوة !

إنما الذى يثير لدىّ أشد العجب هو زعم الغربيين - أعنى معظمهم - أنهم حققوا « تقدما » روحيا جديرا بأن تحتذيه سائر أمم الأرض ! هذه مقولة أطلقها هيجل فى القرن الماضى وأرضى بها غرور الألمان القومى ، ولكن القوم فى ألمانيا وغير ألمانيا مازالوا يتشبثون بها ، ويعدلونها قليلا أو كثيرا لتتفق مع قياسهم ، ولكن جوهرها واحد : وهو النعى على الشرقيين لأنهم فهموا « الحرية » فهما ضيقا حين قصروها على فرد واحد ، والتنويه بالإغريق لأنهم وسعوا مفهوم الحرية ليشمل جميع الأفراد من أهل المدينة (دون الارقاء والموالى) وتمجيد الجرمان ، الذين اعتنقوا المسيحية ، لأنهم جعلوا الحرية حقا لكل البشر ، ويمكنك أن تضحك من هذا الكلام إذا تذكرت نيتشة وتمجيده للفرد ، والنازية واستبدالها الصليب المعقوف - الذى أخذته من وثنية الجرمان - بصليب المسيحية ، ولكن الأمر لا يدعو إلى الضحك مطلقا حين نلاحظ كيف تفسر الحكومات الأوربية - شرقيها وغربيها - فى ايامنا هذه معنى الحرية .

لقد كان القرن التاسع عشر فى اوروبا يمثل طفولة الوعى الأوروبى المعاصر بكل ما فى الطفولة من معنى الإقبال على الحياة واضفاء زينة الخيال على الواقع ، لذلك أضفوا على التقدم المادى المتسارع ثوب تقدم روحى مماثل ، ولكن الثوب المزيف سقط وظهر عوار المدنية الغربية وكذب مزاعم « الحرية » الغربية حتى بالنسبة للفقراء من أبناء الغرب أنفسهم .

أمام هذه الأفكار الغربية المهوشة والمغلوطة عن « التقدم » الروحى يحسن بنا نحن العرب والمسلمين - بل نحن « الشرقيين » عامة - ان نستعيد نظرتنا الأصيلة إلى كيفيات الوجود ، وهى « الصراط السوى » عندنا ، وربما سميناها « المثل العليا » اتباعا لأفلاطون (وقد كان أفلاطون على كل حال تلميذا للفلسفة الشرقية) فالصراط السوى واحد لا يتغير ، لا يعرف « التقدم » ولا

التأخر ، فهو ثابت بالوحى الإلهى ، هو العروة الوثقى لا انفصام لها ، ولكن البشر قد يستمسكون به ويلتزمونه وقد يحيدون عنه وينحرفون ، وغالبا ما يكون هذا الانحراف ناشئا عن زيادة القدرة ، وربما أوصلهم إلى حد الدمار الشامل ، وهم قد أمروا بعمارة الأرض ، التى تتطلب زيادة القدرة على ذلك لا أن يحولوا القدرة إلى طاغوت كطاغوت التكنولوجيا المعاصرة .

أحرار مسيرون

يفترض الغربيون أن الحضارة كل واحد منسجم ، ونأخذ عنهم هذا القول فنجد أنفسنا أسرى لحتمية كريهة : إذا أخذنا طرق الغرب في العمل والإنتاج ، إذا أخذنا مخترعاته ومبتكراته ، بل إذا حاولنا أن نجاريهم في هذه المخترعات والمبتكرات ولم نقتصر على النقل والتقليد ، فلابد من أن نأخذ أيضا أخلاقه وعاداته ومثله وقيمه . أنا لا أشك في أن هذه القضية إذا طرحت هكذا صريحة فلن تجد واحدا في المائة من أمتنا يقبلها أو يسلم بضرورتها . ومع ذلك فالرفض الواعي شيء والقبول المرغم شيء آخر ، ولكن لماذا نحس في قرارة أنفسنا أن هناك نوعا من الإرغام يقع علينا لقبولها ؟ لماذا هذا التمزق وهذه الحيرة ، لماذا هذا التطرف في القبول ، وهذا التطرف في الرفض ، إن لم يكن الغرب قد نجح فعلا في أن يصدر إلينا فكرته عن « وحدة الحضارة » ؟

واسمحوا لي أن أقول لكم ، يا أهلي وعشيرتي ، حقيقة لعل معظمكم يعرفها جيدا ، ولكننا نفضل أن نتجاهلها ، ظنا منا أن الاعتراف بها يزيد تمزقنا وحيرتنا ، تلك هي أن السادة الغربيين ينظرون إلينا ويضحكون ، فمع أن الكثيرين منا ـ إن لم يكن معظمنا ـ قد انساق في تقليدهم إلى الحد الذي بتنا فيه نشعر بالخطر على شخصيتنا الحضارية ، فإن السادة الغربيين يهزأون من طريقتنا في تقليدهم ، وكأنهم معلم قاسي القلب ميت الضمير ،

الجأته مصلحته الخاصة إلى أن يقف أمام حفنة من الأطفال يعلمهم شيئا لا يحبونه ، ولا يحب أن يعلمهم إياه ، فهو يلقيه إليهم في استعلاء المدل بتفوقه ، الناعى سوء حظه ، فإذا لاحظ من احدهم خطأ أو توهمه ، انفجر سخطه عليه ، وربما سب أهله وجنسه ، والطبيب القلب منهم إذا رأى أحدنا يحسن محاكاته اشتد تعجبه منه ، حتى حجب أى علامة من علامات الرضى .

تقتحم على تفكيرى ، كلما أخذت فى موضوع من هذه الموضوعات المهمة ، ذكرى قد تكون تافهة ، وقد تكون قديمة ، ولكنها لأمر ما لاتريد أن تبرح مخيلتى ، من هذه الذكريات أنى كنت فى زيارة للولايات المتحدة الأمريكية قبل ثمان وعشرين سنة ، ونزلت فى تجوالى بإحدى مدن « الغرب الأوسط » وكان مضيفى ذات يوم من تلك الأيام رجلا أمريكيا ـ ولكى أكون محددا كل التحديد أقول إنه أمريكى أبيض ـ غمرنى ـ والحق يقال ـ بكرمه ولطفه ، على الرغم من أنى لم أستطع ـ حتى فى تلك الأيام ـ أن أمسك لسانى عن كلمة سخيفة قلتها فى حق الغرب . وكان أشد ما أحرجنى أن الرجل قضى مع أسرته سنة فى مصر ، وزعم أنها كانت من أسعد سنى عمره ، وأن ابنته لا تزال تلح فى العودة إليها ، ولكن حرجى كله زال لكلمة واحدة قالها ذلك الرجل الطيب :

كان يتحدث عن أسرة مصرية ساكنته فى البيت الذى يقيم فيه ، أو فى بيت مجاور (هذه لم أعد أذكرها الآن) وكان لهم أى لهذه الأسرة المصرية ـ طفل فى نحو الثالثة ، وفى حماسة الرجل للأسرة وطفلها قال عن الطفل (واسمحوا لى أن أعيد كلماته الأمريكية قبل أن أترجمها ، فقد انحفرت هذه الكلمات فى ذاكرتى كخط بماء النار على صحيفة من الحديد) :

He was just like a kid .

(كان يشبه الأطفال / أو لم يكن يختلف عن أى طفل) ، وكأنه

شعر أن هذا الثناء لم يقع من نفسي الموقع الطيب الذى كان يرجوه ، فأردف موضحا معناه .

I mean , just like an American kid .

(أعنى : الأطفال الأمريكيين / أو : أى طفل أمريكى) .

دعونى أقولها لكم الآن يا أهلى وعشيرتى : لن نكون أبدا مثلهم ، فتعالوا بنا نكف عن المحاولة !

أنا أعلم أنكم أشد حرصا على دينكم ووطنيتكم وقوميتكم من أن تقلدوهم فى كل شىء ، ولكننى أجدكم أيضا - وأتمنى أن أكون مخطئا - مبلبلى الفكر كلما نظرتم إلى ما عندهم وما عندنا ، وإخال هذه البلبلة راجعة إلى تصديقكم لما يزعمونه من أن الحضارة كتلة واحدة ، إذا حاولت أن تقتطع منها الجزء الذى يعجبك حطمت الكل ولم يسلم لك الجزء ، أو « شروة » واحدة ، تأخذها وأنت مغمض العينين ، وأنت وحظك ، تجد أكثرها ذهبا أو أكثرها حطبا ، فلا شأن للبائع بك .

سواء أكان القوم يؤمنون حقا بوحدة الحضارة أم لا يؤمنون بها ، ولكنهم يروجون الفكرة لخدمة أغراضهم ، فالضرر واقع بهم كما أنه واقع بنا ، وقد بلونا من أمور الناس أنهم ربما تعاموا عن حقيقة أنفسهم وهى ماثلة أمام كل من يرى . وأهل الغرب (المخلصون منهم لأفكارهم - الذين يعرضون دعوى « وحدة الحضارة » على الواقع المشاهد) ليسوا أقل منا تمزقا وحيرة ، فكيف يمكنهم أن يصدقوا أن الازدهار المادى والتخريب المستمر لموارد الطبيعة مظهران لحضارة « واحدة » ؟ وكيف يمكنهم أن يصدقوا أن جنون التسلح و« هيئة الأمم » يمثلان معا فكرة مشتركة ؟ وكيف يمكنهم أن يسيغوا اجتماع « الحرية الأخلاقية » التى لم يعرف لها مثيل فى التاريخ ، مع العبودية الكاملة لنظم

اجتماعية لا حدود لقوتها (إن فى الشرق أو فى الغرب) ؟

كيف يمكن أن يصدر هذا كله عن نبع واحد ؟

ولكن فيلسوفهم زعم لهم ذلك ، لقد جعلهم « هيجل » يؤمنون بأن « التقدم » شيء حتمى ، وأن هذا التقدم يبلغ غايته على أيدى الشعوب الأوربية ، والشعوب الجرمانية على وجه الخصوص ، ومن خلال « فلسفة الروح » ملأهم غرورا ، فقد أوهمهم أن « التقدم الروحى » يتجلى فيهم ، لا فى فرد أو أفراد ، بل فى كل من يجد من نفسه القحة لادعاء ذلك . ومن خلال « حتمية التقدم » جعل كل شيء مبررا ومشروعا لهم ، حتى استخدام القتل الجماعى فى الحروب ، لا عجب إذا وجدوا أنفسهم الآن عاجزين عن وقف السباق الذرى ، فقد أقنعهم هيجل ، قبل أكثر من قرن ونصف القرن ، أن اختراع البارود كان خيرا وبركة على بنى الإنسان .

لم تستطع الحضارة الغربية الحديثة أن تهضم فكرة الخير والشر ، لأن الاعتراف بأن هناك أشياء هى فى ذاتها خير ، وأشياء هى فى ذاتها شر ، يستلزم الإيمان بالحق الذى لا يتبع أهواء البشر ، وهذا الإيمان وذاك الاعتراف يستلزمان مراقبة للنفس ، ومجاهدة لأهوائها ، والفلسفات الغربية والعلوم الإنسانية الغربية تقوم فى مجملها على أن الهدف الأسمى للإنسان هو تحقيق رغباته ، ولذلك يصطنعون « أخلاقيات » لا تعرف الخير والشر بمعناهما الذاتى الأصيل ، وهما التزام طبيعى قبلته البشرية فى جميع عهودها السابقة ، ولاتزال الشعوب « المتخلفة » أمثالنا تؤمن به ، إنما تقوم « أخلاقيات » الغرب على فكرة « المسئولية » النابعة من « الحرية » وهى فكرة بارعة ، ولكنها تؤول فى الواقع إلى تأليه الإنسان : ألم يصبح هو المشرع الوحيد للكون ، ما رآه حقا فهو حق ، وما رآه باطلا فهو باطل ؟ ولكن كلمة « الإنسان » معنى مجرد ، والذين يوجدون فى الحقيقة أفراد متفاوتون فى كل شيء ..

في القوة والثروة والذكاء والجمال . فالذين يقررون للناس ما هو خير وما هو شر (عفوا ـ أردت أن أقول : ما ينبغي أن يرغبوا فيه وما لاينبغي أن يرغبوا فيه) هم أقطاب القوة والثروة والذكاء والجمال.

كل هذا يبدو لنا طبيعيا من كثرة ما ألفناه ، وكلما كانت « الرغبة » أعنف وأعم ، كان تأليه صاحبها أصرح وأتم ، حتى سمعنا عن كتاب صدر حديثا بالإنجليزية عن ممثلة أمريكية ماتت منذ سنين طويلة ، وفي هذه « السيرة » الموثقة ذكر الكاتب عن الممثلة المذكورة أنها اعتبرت « إلهة الجنس » في أمريكا أو في العالم الغربي كله ، لا أذكر .

والأمثلة كثيرة في كل مجال ، فقس على هذا المثال .

وهنا نجد سلسلة أخرى من « المستلزمات » :

فتأليه الإنسان لنفسه يستلزم الإيمان بأنه يتقدم دائما من حسن إلى أحسن ، لأن الأمر البديهي في هذه الحالة هو أنه لن يختار الأسوأ . وبما أنه يتقدم دائما « نحو الأفضل » فكل المخترعات التي يتفتق عنها فكره ، وكل التغيرات التي تطرأ على أسلوب حياته ، أو على علاقاته بغيره ، هي بالضرورة أفضل ، وإن بدا لنا غير ذلك فالسبب هو أننا نتشبث بالماضي ، ولا نملك « الخيال » الذي يمكننا من رؤية المستقبل والمساهمة في إبداعه.

ولكن تمسك الإنسان بما يراه طيبا في حاضره يستلزم ابتكار وسيلة ـ فكرية ـ لإقناعه بالإعراض عن شيء يراه طيبا ، وقبول شيء آخر يراه سيئا ، فبدلا من أن نواجهه بالحقيقة ، فنقول له إ[illegible] خلق برغبات متضاربة ، وإن هذه الرغبات إذا تركت بدون ضابط إلا من ذاتها فمن الجائز جدا ـ بل من المحتم ـ أن يدمر بعضها بعضا ، نزعم له أن كل ما يراه شرا إنما هو شرط لازم لتحقيق هو فيه أو ما يرجوه من خير .

وهكذا يجد الإنسان « الحر » نفسه مضطرا إلى قبول المبادى النفعية المحضة قاعدة للسلوك ، والتحلل من كل العواطف الإنسانية التى لا يبقى « للإنسانية » معنى بدونها ، لأنهم أوهمو أن هذا جزء لا يتجزأ من « الحياة العصرية » .

حمى « الوطنية » الغربية

لست من هواة الرياضة ، أعنى أننى لا أتابع أنباء المباريات الرياضية ولا أعرف أسماء اللاعبين ، ومع ذلك فقد لفتت نظرى دورة الألعاب الأولمبية فى لوس أنجلوس صيف هذا العام ، إذ كانت مظاهرة سياسية تثير القلق ، قاطعها الاتحاد السوفييتى والدول التى تدور فى فلكه ـ كما هو معروف ـ ونظموا دورتهم الأولمبية (العالمية) الخاصة . و(رب جد جره اللعب) فليس من المستبعد أن يكون هذا الانقسام مقدمة أو تجربة لانقسام أكبر وأخطر فتصبح منظمة الأمم المتحدة منظمتين كما انسلخت دول (المحور) عن عصبة الأمم قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة ، وخطر هذا الانقسام بل وإرهاصاته ، موجودة بالفعل ..

كل ذلك لا يدعو إلى القلق بقدر ما تدعو إليه ظاهرة لوحظت على ذلك (الأولمبياد) ولكنها ـ فى الواقع ـ تعكس مسلك الدولتين العظميين فيما بينهما ، ومسلك كل منهما نحو الدول الصغرى التى تدين لهما بالتبعية أو تحاول الفكاك من هذه التبعية ، وأعنى ظهور حمى (الوطنية) على الجانبين ..

هذه مجلة أمريكية كبيرة جعلت موضوع الغلاف فى عدد ١٣

★ الرياض ١٩٨٤/٩/٢٧

أغسطس الماضى (الحمى الأولمبية) واختارت للغلاف عنوانا أكثر إثارة (جنون الرياضة) وأبرزت هذه الجمل على رأس المقالة :

« كانوا ينشدون : U . S . A , U . S . A ولم تكن هتافات المشجعين المتحمسين ومشاهدى التليفزيون مقصورة على اللاعبين ، إنهم كانوا يهتفون أيضا لبلد يتفجر بشعور جديد بالكبرياء .

إن دورة ١٩٨٤ م الأولمبية التى وصفها البعض بأنها ثانوية وقاطعها آخرون قد تبناها الشعب كله منذ أوائل أغسطس وتحمس لها ومعه كثير من شعوب العالم الأخرى »

ولاشك فى أن شيئا من الكبرياء التى وصلت إلى درجة (الحمى) أو (الجنون) بمناسبة الدورة الأولمبية قد أنسى كاتب المقال أن حماسة شعوب العالم الأخرى لم تكن لها علاقة بكبرياء الشعب الأمريكى ، وكثير منها لم يهتم حتى بكبريائه الخاصة بقدر ما اهتم بلفت أنظار أمريكا والعالم إلى وجوده وإلى قضاياه المصيرية كقضية الزحف الصهيونى على العالم العربى مثلا ، ومهما تحمس العالم الغربى لدورة لوس أنجلوس فقد ظل يتململ لانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بتقرير سياسته المالية من ناحية واستراتيجيته النووية من ناحية أخرى ، ولكن ضجة الملاعب بأعلامها و(ميدالياتها) كان ينتظر منها أن تغطى على مثل هذه الأمور التافهة .

وللسبب نفسه لم يجد الاتحاد السوفييتى بدا من أن ينظم أولمبياده الخاص ليشعل الروح الوطنية فى أرجائه باعتباره (وطن الاشتراكية الأول والأكبر) . وليؤكد زعامته على (أوطان الاشتراكية) الأخرى والصغرى فقد كان عليه أن يغطى على فظائعه فى أفغانستان وتدخله السافر فى بولندا ..

إن كلمة « الوطنية » حين تستعمل فى هذا السياق أو ذاك تصبح مخيفة ومضللة لأنها فى الحالتين تعنى الاستعلاء وإخضاع سائر الشعوب لسلطانها ، نعم إن الطريقين مختلفان ولكن الغاية واحدة ، فالولايات المتحدة الأمريكية تزعم أنها (أمة) واحدة وإن كانت متنوعة العناصر فهى « سبيكة » منصهرة جمعت فضائل سائر الأمم ، ومن ثم فطبيعى أن تكون لها الزعامة على غيرها ، والاتحاد السوفييتى على العكس يقر بأنه مكون من أمم كثيرة مختلفة ، ولكنه يزعم أن هذه الأمم اجتمعت على الرغبة فى إقامة نظام اشتراكى ومن ثم فهى شريكة فى « وطن » واحد ، بل إن كل حزب اشتراكى وكل إنسان يؤمن بالاشتراكية فى أى مكان من العالم يجب أن يعتبر (الاتحاد السوفييتى) وطنه قبل وطنه الحقيقى ! ويجب على (الاشتراكيين) داخل الاتحاد السوفييتى وخارجه أن يؤمنوا بتميزهم على سائر الخلق لأنهم (الطليعة) المتقدمة !

طريقان مختلفان كما قلنا ولكنهما يؤديان إلى نتيجة واحدة وهى السيطرة العالمية ، وهى نفس النتيجة التى أراد هتلر الوصول إليها عن طريق الادعاء بأن الجنس الجرمانى هو أفضل أجناس البشر وأنقاها ، ومن ثم يجب أن تكون له السيادة على سائر الأجناس ، وقد كان هتلر يسمى حزبه (الحزب الاشتراكى الوطنى) ، أين (الوطنية) فى هذا كله ؟ أليست مجرد كلمة تلهب بها بعض الحكومات عواطف شعوبها لكى تدفعهم إلى محاولة السيطرة على العالم ؟

ومن الملاحظات الطريفة فى باب علم النفس اللغوى أن الأوربيين كادوا يهجرون الكلمة التى تدل فى لغاتهم دلالة مباشرة على معنى الوطنية وهى كلمة Patriotisme أو ما يرادفها لأنها مشتقة من كلمة Patrie (الوطن) ومعناها يعرف بالفطرة ويحس بالإلهام فلا سبيل إلى المغالطة فيه ، ووضعوا مكانها كلمة

nationalisme (القومية) والقومية nation كلمة اختلفت حولها المذاهب ، فإذا حملت بالشحنة العاطفية التى لكلمة (وطن) أمكن أن يوجهها السياسيون إلى حيث يريدون .

ومن المزعج حقا أن تصل النعرة (الوطنية) لدى إحدى الدولتين العظميين أو لديهما جميعا إلى حد (الحمى) و(الجنون) اللذين يمكن أن يتحولا بسهولة من أرض الملاعب إلى ساحات القتال ، فحمى الوطنية أو جنون القومية أو الولاء للحزب والطبقة ليست إلا أسماء مختلفة للنزعة الوحشية التى تبثها دولة متسلطة في نفوس شعبها ، وهى نزعة لا تجد أشباعها إلا فى الحرب ، وقد كان السياسيون دائما حين يشنون حربا جديدة يزعمون لشعوبهم التى تعانى ويلاتها أنها (حرب لإنهاء الحرب) أما الحرب الجديدة - إن قدر الله قيامها - فسوف تضع نهاية للحروب فعلا لأنها ستنهى حياة الإنسان على هذا الكوكب ، وقد يعجب المرء كيف يمكن أن تساق الشعوب إلى حتفها بهذه الطريقة ؟ إن الإنسان لا يضحى بشىء عزيز إلا من أجل شىء أعز منه ، ووطن الإنسان إذا تعرض للضياع يصبح أعز عليه من حياته ومن الدنيا كلها - أو يمكن أن يصبح كذلك - فشاعرنا يقول : (وتهون الأرض إلا موضعا) لذلك نجد الحكومات التى تسعى إلى التسلط أو (الهيمنة) كما يقال توقع فى نفوس شعوبها أن أمنها مهدد فى أوطانها ، وبذلك تستغل العاطفة الوطنية ، وهى من أنبل عواطف الإنسان ، لمزيد من العدوان . وفى منطقتنا نموذج مصغر لهذه الحالة .

وربما كان مستقبل العالم رهنا باستقرار معنى (الوطنية) الصحيحة لدى الشعوب الكثيرة فى الشرق والغرب ، التى تجد أوطانها معرضة لأن « تؤكل » فى صراع العملاقين . إن هذه الشعوب قد عرفت دائما معنى آخر (للوطنية) لا لبس فيه ولا تعقيد ، ولكنه معنى عميق الجذور فى النفس : معنى الحفاظ على

تراب الآباء والأجداد وعلى تراث الآباء والأجداد ، لا يوجد شعب لا يعرف هذا المعنى قولا وفعلا وتضحية مستمرة ، فالشعوب التى نسيته قد ذهبت واندثرت ، وبدونه وبدون التمسك به لابقاء ولا مستقبل .

ولكن هل ضعف هذا المعنى وهو كما نقول معنى فطرى راسخ في النفوس ؟ نقول : لعله لم يضعف ولكن غطت عليه الصراعات المذهبية الآتية من العالم الغربى .

غطت عليه ، بل كادت تفتك به ، فكرتان بالغتا الخطورة نرى آثارهما فى معظم دول العالم الثالث التى حصلت على استقلالها حديثا بفضل قوة (الشعور الوطنى) .

فهذه الدول بدلا من أن تكون عامل ثبات فى عالمنا الذى يترنح على حافة الحرب أصبحت مخالب قطط فى أيدى اللاعبين العملاقين ، وما ذلك إلا لأن الفكرة الوطنية قد زاحمتها حتى كادت تخنقها فكرة (الصراع الطبقى) من ناحية وفكرة (القومية) من ناحية أخرى ، وكلتاهما فكرة تميز بها التاريخ الأوربى فى مراحل معينة من تطوره ، ولا يلزم أن تتكرر فى تاريخ الشرق العربى الحديث أو تاريخ أفريقيا المعاصرة مثلا ..

ولا يتسع المجال هنا لشرح هذا الاختلاف .. ولكن تنبغى الإشارة إلى تعثر الفكرة القومية فى العالم العربى المعاصر وتمزقها بين تيارات كثيرة متعارضة ، واصطدامها دائما بوجود الأقليات العرقية والدينية ، وهذه الظواهر كلها توحى بأنها فكرة غريبة على تاريخنا وواقعنا ، وكثير منا يتساءلون اليوم : ألم يكن قبول بعض الحكومات للفكرة الأوربية الأحدث ، فكرة (الصراع الطبقى) ولو بصورة ملطفة ، وتقسيم الناس إلى (فئات) عاملا آخر فى إضعاف الرابطة الوطنية ، وانحدار الإنتاج القومى نتيجة للاهتمام بتقسيمه ، قبل الاهتمام بزيادته ؟

جولة الكاميرا ...

بكى رئيس وزراء أستراليا في مؤتمره الصحفي .. صحيح أنه حوصر بالأسئلة ولكن أي رد فعل هذا ؟ إنه يكون غريبا من تلميذ يجلس أمام ممتحنيه ، فما بالك برئيس وزارة ورئيس حزب ، فاز حزبه فى الانتخابات بأغلبية كبيرة ولايزال يتمتع بثقة الناخبين . لم تكن التهمة الموجهة إلى رئيس الوزراء ـ تهمة التستر على جماعة من الفاسدين وتجار المخدرات ـ كافية رغم بشاعتها لتفسير انهياره المفاجي ، إلا إذا كان معناه اعترافا غير مباشر بالخطأ ، كفتاة مخدوعة تتفجر باكية بين يدى أهلها حين يستحيل عليها اخفاء آثار المصيبة التى حلت بها ، لذلك بادرت زوجة رئيس الوزراء الأسترالى بالذهاب إلى التليفزيون كى تعلن لجمهور المشاهدين السبب الحقيقي وراء تلك الدموع ، وهو أن ابنتهما التى لاتزال فى أوائل العشرينيات من عمرها ، العروس الجميلة التى فرحت منذ مدة وجيزة بطفلها الأول ، مدمنة للهيروين ، وزوجها كذلك ، بل ثمة ما هو أفدح : أن الفتاة لا ينتظر ـ رغم العلاج ـ أن تعيش أكثر من سنوات قليلة .

... تنتقل الكاميرا آلاف الأميال مخلفة وراءها الربيع الأسترالى عابرة خط الاستواء طاوية نصف الكرة الشمالى لتحط فى صقيع موسكو ، حيث تلتقط صورة للرئيس تشيرنينكو وهو يعلن عزم الحكومة والحزب على تطهير البلاد من الفساد والانحراف والإدمان .. التى أخذت تنتشر فى جميع الأوساط بصورة مخيفة ..

ولتقفز الكاميرا مرة ثانية لترتمى فى أحضان العملاق الآخر .. إنها الآن فى ربوع مانهاتن حيث تفتح عيونها دهشة وهى تسجل صورا لشوارع كاملة كادت تتحول إلى مستعمرات من نوع غريب على نيويورك .. شباب صغار السن .. يتجولون من منزل إلى منزل ، يحملون نشرات باسم جمعية دينية جديدة ، بيوت بحالها تنتقل ملكيتها إلى الجمعية ، ويترك المصور « كاميراه » تعمل أوتوماتيكيا ، ويسأل فى دهشة : ومن أين جاءت الأموال ؟ فيتلقى الجواب : من وصايا العوانس والأرامل ، ولعل هناك مصادر أخرى ، ويسمع حديثا عن « الأغلبية الفاضلة » التى تزعم هذه الجمعية - وربما جمعيات كثيرة مماثلة - أنها تنطق باسمها ، ويقرأ حملات فى الصحف على السيدة « فرارو » لموقفها من مسألة الإجهاض ، وأصداء الاتهامات التى وجهت إلى زوجها - وبرأته المحكمة منها - بالتلاعب فى الضرائب لم تزل تتردد ، ويلتقط نتفا من هنا وهناك ، عن « حملة مضادة » يدبرها خصوم الرئيس ريجان عشية الانتخابات ، وتذهب إلى حد اتهامه بحماية أناس لهم صلة بالمافيا ، ثم تطالعه صورة فى التليفزيون للمرشح الديمقراطى « مونديل » وهو يخطب منددا وساخرا ، ومستشهدا - فى ثنايا حديثه - بالحكم التى حفظها عن أبيه القسيس ..

والقفزة الثالثة عبر المحيط الهادىء .. إلى « المعجزة اليابانية » حيث نسمع رئيس الوزراء ناكاسونى وحزبه الديمقراطى الحر يرددون شعار « العودة إلى التربية الأخلاقية » ، إلى تأكيد دور المدرسة فى المحافظة على القيم اليابانية التقليدية ، بتنمية مشاعر حب الوطن واحترام الآباء والرؤساء والتمسك بالأعراف العامة فى نفوس التلاميذ .. والذين يعرفون شيئا عن اليابان يعرفون أن نهضتها الحديثة ترجع قبل كل شىء إلى اهتمامها بالتعليم ، نظما ومناهج وأسلوبا وإدارة ، ولعلهم يخشون أيضا أن تكون هذه الدعوة إلى إحياء « التربية الأخلاقية » المحافظة مقدمة لظهور اليابان مرة أخرى كقوة عسكرية خطيرة ، ولكن الواقع الذى تدل

عليه الإحصاءات هو أن مستقبل اليابان الاقتصادى نفسه أصبح مهددا بأنماط سلوكية جديدة أخذت تنتشر بين الشباب اليابانى ، إن اللجنة التى شكلها ناكاسونى من كبار رجال التربية وقادة الفكر وجعلها ملحقة بمكتبه مباشرة تبحث فى وقائع مثل زيادة جرائم الأحداث ، حتى وصلت نسبتها إلى خمس وأربعين فى المائة من الجرائم المسجلة خلال العام الماضى ، أما حوادث الاعتداء التى ارتكبت داخل المدارس نفسها فقد بلغت ٢١٢٥ حادثا ، منها ٩٢٩ حادثا كان ضحاياها من المدرسين .. أين هذا من الأدب اليابانى المشهور ؟ وهل يمكن أن تنجح اللجنة فى إعادة القيم التقليدية إلى المدرسة اليابانية ، كما يرغب رئيس الوزراء وحزبه فى حين أن ٢٤,٥ فى المائة فقط من التلاميذ اليابانيين قد أظهروا رضاهم الكامل عن المدرسة بحالتها الحاضرة ؟

وليس « المزاج الرافض » منحصرا فى شباب المدارس الثانوية ومن فى حكمهم .. إن الفريق الأكبر سنا ، والذى بدأ حياته العملية بعد التخرج ، قد أخذ يبدى نزعات رافضة أيضا ، وإن تكن أقل عدوانية كما يمكن أن نتوقع ، إما بحكم أن هؤلاء أكثر نضجا ، وإما بسبب التغيرات المستمرة والمتسارعة داخل المجتمع اليابانى ، والتى جعلت الجيل الأحدث أكثر تعرضا للقلق والاضطراب النفسى ، ربما تصادف الكاميرا مهنيا شابا يفضل أن يبدأ عملا صغيرا فى الريف على أن يتولى منصبا ذا مستقبل مرموق فى شركة كبيرة ، وإذا سألته فسيقول غالبا : إنه يفضل حياة هادئة تكفل له حاجاته الأساسية ، على حياة أكثر بريقا وأعباء ..

إن التغيرات الكبرى لا تتم فجأة ، بل لا يلزم أن تتم على الإطلاق ، فلا تزال الصناعة اليابانية تغزو الأسواق ، ولا يزال الجد اليابانى مضرب الأمثال ، ولكن المجتمع اليابانى الذى وصل إلى درجة التشبع بالقيم المادية قد أخذ يفرز ظواهر جديدة فلم يعد

الكسب أو التقدم المادى هو القيمة الوحيدة ، بل إن هناك سعيا ، ولو غامضا ، نحو قيم أخرى . ربما أخذت الآن أشكالا سلبية ، مجرد البحث عن شىء من الراحة ، لدى الشباب الناضج ، كما يميل الإنسان إلى التوقف عندما يتشكك فى أنه يسلك الطريق الصحيح (وقد تواترت الأنباء أيضا بأن العمال الألمان أصبحوا يطالبون بمزيد من ساعات الراحة ، وإن كان التعبير الرأسمالى عن هذه الظاهرة يقول إنهم أصبحوا أقل إنتاجية ، وأميل إلى الكسل) . أما المراهقون الأقل خبرة وسيطرة على دوافعهم فإن سلبيتهم فى مواجهة مطالب المجتمع منهم كثيرا ما تأخذ أشكالا عدوانية أو منحرفة .

لماذا يتجمع أمامى هذا الشريط كله ؟ هل أريد أن أقنعكم ، أو أقنع نفسى ، بأن شمس الحضارة الغربية آخذة فى الانحدار ، بدليل أن القوم أنفسهم أخذوا يجتهدون فى سد الخروق بما بقى لديهم من معتقدات مهلهلة ؟ هل أريد أن أخلص من هذا إلى نوع من الرضى عن النفس ، لأننا لم نخلق غربيين ، ولأننا لا نزال ، بحمند الله ، محافظين على تراثنا ، متمسكين بعقيدتنا ، مؤمنين بطريقتنا المثلى ؟ أم أريد أن أحذر من الانسياق وراء الحضارة الغربية ، لأنها قد تحل مشكلات الفقر والتخلف (وليس هذا صحيحا دائما) ولكنها تخلق مشكلاتها الخاصة ، فأقل ما يجب علينا نحو أنفسنا هو أن نتخذ الحيطة قبل وقوع هذه المشكلات ؟

أظن أننى أفكر فى هذا كله ، ولكننى أفكر معه فى شىء أخطر ، وهو أن هذه الحضارة الغربية لا تتركنا نفكر فى هدوء ، ولا نختار طريقنا بملء حريتنا ، إنها ، ببساطة تامة ، تفرض نفسها علينا : فإما قبلناها خاضعين ، فأصبحنا صورة ممسوخة منها ، وإما رفضناها وتقوقعنا على أنفسنا ، فكسرت قشرتنا الهشة والتهمتنا . الطريق الأول سلكته أمم كثيرة فى آسيا وأمريكا اللاتينية ، فصار حالها إلى ما نعرف .. والطريق الثانى جربناه زمنا قصيرا أو طويلا

ثم تبين لنا عدم جدواه فرجعنا عنه ـ حمدا لله ـ قبل أن نلتهم تماما . نحن أبناء الصحراء تعودنا طوال تاريخنا أن نبرز ضاحين للشمس مستقبلين السيول العاتية ، لم نحارب قط ، كما حارب أعداؤنا حتى الأمس القريب خلف أطم أو دشم ، فكيف يمكن أن نتقوقع ؟ أمامنا طريق ثالث وهو الطريق الذى سلكته اليابان ، لم نتقوقع ، ولكنها احتفظت بروحها الخاصة لنفسها ، واستعارت قوة الغرب المادية ، فنازلته وزلزلته ، ثم كان ما لابد ـ فى مثل حالتها ـ أن يكون : تضعضعت قوتها الناشئة أمام قوته الشامخة ، فانكسرت ، وها هى ذى تكاد اليوم أن تفقد روحها أيضا ، إن « المعجزة اليابانية » تنطوى على « مأساة يابانية » ..

فهل ثمة طريق رابع ؟ أجل ! وهو طريق الثقافة العربية منذ البدء ! إن الثقافة العربية لم تكن قط إقليمية أو انانية أو متمركزة حول نفسها ، لقد كانت دائما ، أكثر من أى ثقافة أخرى عرفها التاريخ ، ثقافة عالمية معطاء ، ولذلك كانت أيضا تأخذ بحرية ، وتأخذ بنهم .

بالطبع سيسخر منى كل العقلاء حين أقول : إن مستقبل الحضارة العالمية مرتبط بمستقبل الحضارة العربية !

صهيونى ؟

منذ زمن غير بعيد شهدت مجلسا لبعض الفضلاء ، وجرى ذ
تشومسكى العالم اللغوى الأمريكى المشهور ، فعلق أ
الحاضرين بأنه يهودى ، وأضاف آخر بلهجة العارف : إ
صهيونى أيضا ، وإن أباه حاخام ، وأنا لا أعرف شيئا عن و
تشومسكى ، ولكننى اطلعت أخيرا على مقال لتشومسكى (الابن
نشر لأول مرة فى مجلة سياسية متخصصة سنة ١٩٧٦ ، ثم نش
مع تذييل قصير فى كتاب بعنوان « حرب أم سلام فى الشر
الأوسط » سنة ١٩٧٨ ، أتوقع أن يكون المهتمون بأمور السيا
عارفين بهذا المقال ، ولذلك أسألهم المعذرة إن وقعت كلم
الساذجة بين أيديهم ، فأنا بعيد كل البعد عن ساس يسوس وجم
ما اشتق منها ، ولكن لي بعض الاهتمام بمعرفة ما يقوله الآخر
وهو اهتمام فطرى جدا ، يمكن أن يسمى على سبيل التفخي
بلقاء الحضارات ، وقد وجدت المقال المذكور يثير مسائل مهمة
هذا الباب ، ويثير مسائل أخرى فى غيره ، فأحببت أن أشرك م
من يشاطروننى ذلك الاهتمام الفطرى من القراء .

عنوان مقال تشومسكى : « الانزلاق نحو الحرب وبدائله
ومن تاريخ المقال يعرف أنه كتب على أثر اتفاقيات «
الاشتباك » التى جمدت الموقف بين العرب وإسرائيل بعد حر
١٩٧٣ ، ومن العنوان يفهم رأى الكاتب فى هذا « الاتفاق المؤقت
أنه ليس اتفاقا فى الحقيقة ولكنه إعادة للوضع إلى ما كان عليه ب

عامى ١٩٦٧ و١٩٧٣ ، وأن هذه الإعادة تؤدى لا محالة إلى حرب جديدة ، مالم يتم العدول عن سياسة « الخطوة خطوة » التى أعلنها كيسنجر وزير خارجية أمريكا ، والتى يصرح الكاتب بأن هدفها الواضح هو تحقيق مطامع اسرائيل فى المنطقة العربية فى ظل الظروف المتغيرة (بعد حرب ١٩٧٣) .. ويشير الكاتب فى هذا السياق إلى المعاملة المهينة التى لقيها السادات من الدبلوماسية الأمريكية حين سعى لحل سياسى فى أوائل سنة ١٩٧٣ ، وكيف اضطره ذلك إلى اللجوء للحرب (لعل فى هذا التقرير الموثق ما يدفع شكوك الذين استكثروا على العربَ أن ينتصروا فى حرب ، فزعموا أن حرب أكتوبر كانت مسرحية رتبت بالاتفاق مع أمريكا ، وربما مع إسرائيل أيضا !)

والحل الذى يقترحه تشومسكى هو قيام دولة فلسطينية مستقلة على أرض فلسطين ، إلى جانب دولة إسرائيل ، وهو يرى أن إسرائيل نفسها عازفة عن هذا الحل ، ولذلك فلابد من ضغط أمريكى ، وهنا يكون للرأى العام الأمريكى أثره الحاسم ، يقرر تشومسكى هذه النقاط كلها فى الصفحات الثلاث الأولى من مقاله ، ثم يقيم الأدلة على صحتها فى ست وثلاثين صفحة أعقبتها ست صفحات أخرى من الهوامش المدعمة بالوثائق وبعضها مستمد من الصحافة الإسرائيلية والنشرات الرسمية الإسرائيلية ..

وينبغى ألا ننسى أن تشومسكى أمريكى يهودى يكتب أساسا للأمريكيين والإسرائيليين .. ولذلك فهو يكتب من منطلق الحرص على مستقبل دولة إسرائيل .. ومن السذاجة أن ننتظر منه غير ذلك . إنه ينذر بأن الأطماع الإسرائيلية لن تنتهى إلا بتدمير دولة إسرائيل .

يقول مثلا :

« هناك خريطة رسمية (لإسرائيل الكبرى) صدرت فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وكلها ملونة باللون الأصفر بدون حدود داخلية (تميز الأرض المحتلة فى يونيه ١٩٦٧ عن إسرائيل ١٩٤٨) ، وثمة خريطة رسمية أخرى للمستوطنات التى أنشئت بين ١٩٦٩ و١٩٧٤ ، وهى أقل صراحة من الأولى فى شأن الحدود ، ولكن يكفى أن نرسم خطا يصل بين المستوطنات المبينة على الخريطة ذاكرين قول جولدامائير : (إن الحدود هى حيث يعيش اليهود ، لا حيث يوجد خط على الخريطة) لقد كان الغرض دائما هو : إقامة الحواجز أملا فى أن يصبح من المستحيل تخطيها والعودة إلى الحدود ، والنتائج الواضحة لهذه السياسة تسمح لنا بالقول إن كل واحدة من هذه المستوطنات هى مسمار يدق فى نعش إسرائيل » .

وهو يفضح نفاق الإعلام الأمريكى الذى يغمض عينيه بأدب عن الفظائع التى ترتكبها إسرائيل فى الأرض المحتلة ، ويصف إسرائيل بأنها دولة ديمقراطية (بل « قلعة » الديمقراطية فى الشرق الأوسط !) مع علمه بأن القانون الإسرائيلى لا يعترف بشىء اسمه « مواطن إسرائيلى » فإسرائيل هى الدولة اليهودية ، والمواطن فيها هو اليهودى فقط ، ويسمى الإرهاب الواسع النطاق الذى تقوم به دولة إسرائيل ضد سكان جنوب لبنان « ردعا » بينما يقيم الدنيا ويقعدها لأقل عملية من عمليات الفدائيين الفلسطينيين الذين يسميهم بالطبع « إرهابيين » ، ولا يقتصر هذا التزييف على الاذاعة المسموعة أو المرئية أو الصحف الجارية ، بل إن من « علماء الاجتماع » الأمريكيين من قدم نظرية طريفة عن « تطور أشكال الإرهاب خلال الجيل الماضى » .. ذهب فيها إلى أن الإرهاب الذى كانت تقوم به العصابات الصهيونية مثل شترن وأرجون زفاى ليومى قبيل إعلان دولة إسرائيل كان إرهابا « نظيفا » موجها نحو أهداف متخيرة ، بعكس الإرهاب الفلسطينى العشوائى الذى لا يصدر إلا عن التعصب والتعطش للدماء ! وفى هذا السياق يذكر تشومسكى هذا « العالم » الأمريكى وقراءه بحوادث مثل قنبلة

فندق الملك داود التى قتل فيها واحد وتسعون شخصا من البريطانيين والعرب واليهود .

ولكن تشومسكى لا يقصد بهذه الوقائع الموثقة مجرد « فضح » النظام الصهيونى . إنه يقصد ، إلى « تشخيص » اتجاه سياسى واجتماعى فى الدولة الإسرائيلية يمكن أن يكون له أثره المدمر على مستقبل هذه الدولة كما يمكن أن يصبح خطرا على السلام العالمى .

فالنتيجة الطبيعية لاضطهاد الأقلية العربية فى الداخل ، والسياسة العدوانية تجاه الدول العربية فى الخارج ، هى أن تتحول إسرائيل بسرعة إلى دولة عنصرية فاشية ، والاحتمال الأكبر هنا هو أن يتكرر « سيناريو » الحرب بينها وبين جاراتها العربيات ، وإذا كان الإسرائيليون واثقين فى الوقت الحاضر من تفوقهم العسكرى على الدول العربية مجتمعة ، فإن أرجح التقديرات هو أن هذا التفوق لا يمكن أن يستمر لأكثر من عشر سنوات أخرى .. وفى مواجهة هذا الاحتمال يقول الإسرائيليون إنهم يستطيعون أن يعتمدوا على قوة الرادع النووى .. ومعلوم أن إسرائيل تملك بالفعل القدرة على صنع قنابل نووية ، وحتى إذا امتلك العرب السلاح نفسه فإن توازن « الرعب النووى » سوف يمنع العرب من تدمير دولة إسرائيل .. ويعلق تشومسكى بأن هذه الحالة نفسها ليست بالأمل الذى تصبو إليه البشرية .

والاحتمال الثانى هو ألا تقع حرب ، وتظل إسرائيل محافظة على حالة استنفار عسكرى دائم ، وهذا معناه أن قوة العمل الإسرائيلية ستوجه نحو الصناعات الحربية أساسا (فضلا عن الأعمال الإشرافية والتوجيهية ـ مثل التعليم ـ التى لا يسمح لغير الإسرائيليين بمزاولتها) بينما يعتمد الإنتاج المدنى ، الزراعى والصناعى ، على اليد العاملة العربية ، وهكذا يتحول المجتمع

الإسرائيلى إلى أقبح صور العنصرية ، التى لا يوجد مثيل لها فى عالم اليوم سوى دولة جنوب أفريقيا .

ويستشهد تشومسكى بمشروعات كثيرة رسمية وشبه رسمية على سياسة التفرقة العنصرية التى تتبعها حكومة إسرائيل ويتقبلها الإسرائيليون على أنها مسألة مسلم بها ، ومنها مشروع « تهويد الجليل » الذى تشرف عليه الوكالة اليهودية ، ويتضمن إقامة مدن ومستوطنات زراعية خاصة باليهود ، إلى جانب عدد من القرى اليهودية ، ويقرر أن العرب لا يسمح لهم بالسكنى أو العمل فى المناطق المخصصة لليهود . وقد لا يكون السلوك الرسمى الرمزى أقل دلالة ، فقد استقبلت حكومة إسرائيل رئيس وزراء جنوب أفريقيا ، فورستر ، وهو نازى سابق ، استقبالا حافلا ، كما شاركت دون سائر حكومات العالم فى الاحتفال « باستقلال » الترانسكاى (وهى قطعة قاحلة من الأرض نفت إليها حكومة جنوب أفريقيا قسما من أهلها السود وأطلقت عليها اسم دولة) وقدم التليفزيون الإسرائيلى برنامجا خاصا بهذه المناسبة .

إن تشومسكى يرى فى هذا الاتجاه ، بجوانبه المتعددة ، انحدارا « أخلاقيا وثقافيا » لا يقل خطرا عن حماقته السياسية ، وهنا لابد من أن نقف لنعود إلى بداية هذا الحديث ، أى إلى « صهيونية » تشومسكى ، فتشومسكى يعترف ، فى هذا المقال نفسه ، بأنه كان فى طليعة المتحمسين لنظام « الكيبوتز » (المزارع الجماعية) الإسرائيلية ، يرى فيه صورة راقية للحياة الاجتماعية ، ويقول عن الصهيونية إنها كانت « مثل أى حركة قومية ، مزيجا من عناصر كثيرة منها ما هو مثالى ، بل يكاد يكون نبيلا ، ومنها ما هو قبيح جدا » . ولكنها تطورت حتى وصلت إلى

الحالة التى وصفها ، وأصبح بين قدامى الصهاينة الآن من ينظرون إلى واقع اسرائيل ويتحسرون ..

هذا هو الرجل لا يخفى موقفه ، وربما كان موقف كثيرين غيره أيضا ، وهو على كل حال صوت قوى مؤثر ، فكم يا ترى يكون وزنه بين الأصوات والمواقف ، على هذا الجانب أو ذاك ؟ ...

أثمان البشر

عندما تصل إليك هذه الكلمات ، صديقى القارىء ، تكون قضية الرهائن الأمريكان قد وصلت إلى نقطة غير النقطة التى أراها الآن .

ولكن الحقيقة الثابتة ، والتى لم ينفع فى إخفائها لا تصنع الغضب ، ولا التخويف من العواقب ، ولا إظهار الحنان على المختطفين وأسرهم ، هى أن الولايات المتحدة الأمريكية تساوم على حياة بضعة أمريكان ، بحياة بضعة آلاف من الإيرانيين والعراقيين .

وما نقول ذلك لأننا نستهين بأرواح بضعة أفراد أمريكيين أو غير أمريكيين ، فنحن نعتقد أن الروح سر إلهى ، ويستوى أن يكون هذا السر فى واحد أو كثير ، ونحن نؤمن بأن من قتل نفساً واحدة فكأنما قتل الناس جميعا . ولكن حين يصل الأمر إلى مقايضة سلامة أفراد ، قد لا تمس أرواحهم ولا أبدانهم بسوء على كل حال ، رغم التهديد والإنذار ، بأسلحة فتاكة يعلم المقايض أنها سوف تزهق آلاف الأرواح فى حرب باغية ، فلابد من أن يكون وراء هذه الصفقة اعتقاد ضمنى بأن هناك أكثر من معيار واحد للسلوك ، وأن الإنسان الأمريكى لا يلزمه أن ينظر إلى العراقى أو الإيرانى

★ الهلال : ديسمبر ١٩٨٨

على أنهما أخوان فى الإنسانية ، بل على أنهما عراقى أو إيرانى ، « لا أكثر » .

وليس هذا الموقف جديدا على كل حال ، فالدول الغربية ، وفى مقدمتها أمريكا ، تقاوم الإرهاب بكل صرامة ، ولا تنحنى أبدا لمطالب الإرهابيين ، بشرط أن تكون أرواح الضحايا أرواحا من الدرجة الثانية أو الثالثة ، وقد ساومت الولايات المتحدة الأمريكية على إطلاق ركاب طائرة الخطوط الجوية العالمية التى اختطفت فى بيروت ، لأن معظم ركابها كانوا أمريكيين ، ولكنها حرّضت وصفقت حين قتل عشرات الركاب المصريين والسودانيين واليونانيين (ليسوا أوربيين تماما !) على متن الطائرة المصرية التى اختطفت من مطار أثينا ، فأرواح هؤلاء عملة سهلة ، رخيصة ، يمكن أن تدفع بسخاء فى مقابل إرهابيين أو ثلاثة من الجنس نفسه ، أما إن كان المحتجزون عملة صعبة فإن هؤلاء الإرهابيين أنفسهم يؤخذون بالرفق واللين ، ويعاملون بالطرق الدبلوماسية ، وتوسط لديهم الحكومات ، ورجال الدين ، والشيطان نفسه إن لزم الأمر لإطلاق سراح المحتجزين ، حتى يعودوا إلى أسرهم وأحبابهم ، الذين استبد بهم القلق والجزع .

هل حسبوا أثمان أرواحنا وأرواحهم بمتوسط دخل الفرد ؟ فهم يقولون ؟ « فلان يساوى مليوناً » إذا كان يملك مليون دولار . وهم تعودوا أن يحسبوا كل شىء بالأرقام ، فالأرقام هى لغة العلوم الطبيعية ، والعلوم الطبيعية تحاول أن تحتوى فى حضنها القاتل كل شىء حتى الكون والإنسان . إذن فالروح ليست من أمر ربى ، الروح كلمة تنتمى إلى حفريات الثقافة ، اخترعها أناس لم يفهموا ، ولم يحاولوا أن يفهموا كيف يعمل عقل الإنسان ، وكيف يستجيب للمؤثرات الخارجية ، وهذه أمور استطاع العلم الحديث أن يفسرها ، ويقيسها ، بل ويتحكم فيها ، والمبدأ الأول فى تفسير سلوك الإنسان وقياسه والتحكم فيه هو المصلحة ، فالحقيقة ـ تلك

الحقيقة التى لا تفرق بين صغير وكبير ، وقليل وكثير ، وأسود وأبيض ـ هذه الحقيقة هى أيضا حفرية من حفريات الثقافة ، يجب شطبها من القاموس ، ومن تعذر عليه التخلص منها فعليه أن يهمل صيغة المفرد ويتحدث عنها فقط بصيغة الجمع ، فليست هناك حقيقة واحدة وإنما هناك حقائق كثيرة ، والحقائق جميعها نسبية ، ومادامت كذلك فيجب أن ترجع إلى ضابط متغير ، وماذا يكون هذا الضابط سوى المصلحة ؟ إذن فلتتنزل الحقيقة عن عرشها ، ولتسلم أمرها إلى سلطان المصلحة ، هذه المصلحة التى يمكن تفسيرها وقياسها والتحكم فيها .

لهذا نحار أحيانا ـ نحن الشرقيين ـ فى سلوك أهل الغرب ، كما يحارون فى فهم سلوكنا ، فعندنا أن هناك حقائق لا تقبل التغيير ، ولا تحسب بالأرقام ، ولا تمكن المساواة فيها لأننا ـ واعين أو غير واعين ـ ننسبها إلى حقيقة واحدة عليا لها هذه الصفات ، وعندما نخطىء نحو هذه الحقيقة نشعر بالندم ، وربما كرهنا أنفسنا ، وربما دفعناها نحو المزيد من الخطأ ، لنشعر بمزيد من الانسحاق ، وعندما تمتلىء نفوسنا بهذه الحقيقة نصنع المعجزات ، وعندهم أن الإنسان يلبس لكل حالة لباسها : فتراهم فى أروقة الاجتماعات ، وحفلات الكوكتيل ، ناعمين مصقولين ، يمشون هونا ، ويتكلمون همساً ، ويفيضون عذوبة ، وتراهم إذا تصادمت مصالحهم وحوشا أو شراً من الوحوش ، يدب بعضهم إلى بعض بالخديعة ، ويحيك المؤامرات ، ويسدد الطعنات فى الظلام ، أما إذا أشعلوا نار الحرب فكل شىء عندهم مشروع إذا درأ الهزيمة أو حقق النصر ، وكل شىء عندهم مبرر فى حساب الأرباح والخسائر !

ترومان حسبها أيضا حين محا هيروشيما ونجازاكى من على وجه الأرض وقتل الألوف من الأطفال والنساء والشيوخ وترك الوفا

أخرى يفتك بأجسامهم المرض وينتظرون الموت المخلّص بعد سنين تقصر أو تطول ، قال وقال المدافعون عن جريمته : إنه أنقذ بقتل هذه الألوف مليونا أو ملايين كان يمكن أن تزهق أرواحهم لو طال أمد الحرب !

عمل لا غبار عليه ـ بل عمل إنسانى عظيم ! ـ إن قبلت هذه الحسبة .

فالمعيار الأخلاقى فى النهاية لا يخرج عن واحد من اثنين : إما معيار الحقيقة ، وإما معيار المصلحة .

الحقيقة لا تنفى المصلحة ، ولكن المصلحة قد تنفى الحقيقة ، لهذا نفهم الغربيين خيرا مما يفهموننا ، ونتعلم منهم دون أن نتخلى عن حقيقتنا ، ولا يتعلمون منا إلا إذا تخلوا عن حضارتهم وهربوا إلى أحضان حضارتنا . ربما بهرتنا أخلاقهم العملية ، أمانتهم فى معاملاتهم ومحافظتهم على مواعيدهم مع سرعة الانجاز وإتقان العمل ، هذه أخلاق يسهل اكتسابها لأنها لا تنافى الحقائق الإنسانية التى نحرص عليها قبل كل شىء ، بل إنها يمكن أن ترسخ هذه الأخلاق فى النفوس فلا تلعب بها الأهواء الوقتية . ولكن الأخلاق العملية بدون الحقائق الإنسانية تترك الحياة خواء وإن جعلتها سهلة ، والخواء السهل هو آفة الحضارة الغربية ، وقد حاول بعض المفكرين الغربيين أن يعالجوه بإبقاء ركن صغير منعزل لأمور الروح ، وأخذ هذا الحل الساذج عنهم رجال من قومنا ندعوهم فلاسفة ومفكرين ، ولكنه حل لا يحل إلا مشكلة هؤلاء الأفراد الذين يعانون من انقسام الشخصية .

نحن لا ندين الإرهاب فقط لأنه بشع وظالم ودنىء ، ولكننا ندينه أيضا لأنه جزء من حضارة الغرب التى توشك أن تدمر العالم .

وأحيانا أسائل نفسى : لماذا لم أسمع بدراسة علمية فى تاريخ الإرهاب ، شيء يشبه ما صنعه فوكو فى أركيولوجية المعرفة حول تاريخ السجون أو تاريخ الجنون ؟ وأجيب نفسى بأن مثل هذه الدراسات ، مع الأسف الشديد ، لا تزال تأتينا من الغرب ، ويظهر أن موضوعا كموضوع الإرهاب لا يسهل على كاتب غربى ، مع كل الحريات التى يتمتع بها ، أن يعالجه بأمانة وموضوعية . والخطوط الرئيسية للموضوع ماثلة أمام كل باحث يريد أن يتصدى لهذه المهمة ، فالإرهاب ، كمؤسسة اجتماعية ، وتكتيك حزبى ، يتميز عن « قتل الغيلة » الذى عرف منذ أقدم العصور ووجد فى جميع المجتمعات الصغيرة والكبيرة ، الشرقية والغربية . وتسمية الأعمال الإرهابية « اغتيالات » تسمية تنطوى على خلط كبير ، فالاغتيال عمل فردى لا يلزم أن يكون وراءه تنظيم ما ، والإرهاب منظمة اجتماعية تستخدم الاغتيال كوسيلة واحدة من بين وسائل كثيرة ، ويستطيع المؤرخ أن يلاحظ تطور هذه المنظمة من « الاغتيال » البسيط ، وأظن أن ذلك حدث قبيل الحرب العالمية الأولى ، بين فريق من الثوريين الروس ، ففى كتابات لينين كلام مهم عنه (وقد عارضه بشدة) . وأقترح على هذا الباحث أن يدرس العلاقة بين الإرهاب والتقدم التكنولوجى من ناحية ، والإرهاب وأساليب السيطرة السياسية من ناحية أخرى .

أما وأنا بصدد تشخيص الإرهاب فقط ، باعتباره سلوكا عدوانيا فإننى أراه يقوم على نفس المبدأ الأخلاقى الذى تقوم عليه الحضارة الغربية ، مبدأ المصلحة . فكل شيء مشروع فى السلوك الإرهابى إذا حقق النتيجة المبتغاة ، وكل الفرق بين هذه المنظمة الصغيرة والمنظمة ـ الأم ـ الحضارة الغربية ـ إن المصلحة فى الحالة الأولى هى مصلحة فئة صغيرة مظلومة أو مسحوقة .

ألا تعجبون معى لأن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تجرى

اتصالات مع فئات إرهابية صغيرة فى لبنان ، بينما ترفض بعناد أن تجرى أية مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ؟

ولكن مهما يكن هذا الأمر غريبا فتفسيره واضح : ان حكومة الولايات المتحدة والإرهابيين من كل جنس ولون يتكلمون لغة واحدة ، لغة المصلحة ، لا شيء غير المصلحة ! ولا تعجبوا لهذا الاتفاق رغم التناقض الواضح بين الفريقين ، فهو اتفاق فى اللغة فحسب ، اتفاق فى القانون الأخلاقى ، والمصالح تتناقض وقد حارب الغرب نفسه قبل أن يحارب الإرهاب !

هؤلاء الذين عارضوا سياسة حكومة الولايات المتحدة ، داخل الولايات المتحدة نفسها : المشرعون ، والكتاب ، والناس العاديون الذين لم تنجح عبارات الحنان المصطنع على أسر المخطوفين فى تنويم ضمائرهم .. هل تنبهت « الحقيقة » الكامنة فى قلوبهم : الحقيقة التى لا تقبل الاعوجاج ، ولا تجعل الشر سبيلاً إلى الخير ، ولا تفرق بين أثمان البشر ؟

دعونا لا نخدع أنفسنا ، معظمهم ـ أيضا ـ جادلوا باسم المصلحة . قالوا إن المساومة مع الإرهابيين تشجع على مزيد من الإرهاب . ولعل هذا صحيح . ولكن أصح منه أن بواعث الإرهاب كامنة فى النظام العالمى نفسه ، ولذلك فسوف تظل مصاحبة لهذا النظام إلى أن يتغير من أساسه . وصحيح أيضا أن فرص « النجاح » سوف تظل قائمة بالنسبة للإرهابيين ، سواء تحققت عن طريق التفاوض أم بدونه .

وأهم من هذا وذاك أن البشر لا تتفق مصالحهم جميعا ابدا ، فلابد من أن تتغلب مصلحة الأقوى ، وحب الحرية والأنفة من الظلم طبيعة فى البشر جميعا ، فقيرهم وغنيهم ، أسودهم وأبيضهم ، فلن يقبل الضعيف المظلوم أن يعيش أبدا فى عبودية

القوى الظالم . ولكن البشر الذين تفرّقهم المصالح ، يمكن أن ينقادوا جميعا لصوت الحق .

فإن كان بين المعارضين في أمريكا من سمع صوت الحق ـ ولن يعدم صوت الحق مجيباً في أى زمان أو مكان ـ فهؤلاء هم إخواننا لا يفرق بينا وبينهم لون أو جنس أو ملة ، بل نتلقاهم جميعا بالأحضان !

هذه الجائزة

انفض المولد ، وأخذها وليم جولدنج الإنجليزى ، جائزة نوبل فى الآداب أعنى . فجوائز نوبل الأخرى بعيدة عن مداركى ، وخاصة جائزة نوبل للسلام التى أخذها بيجن وشريكه منذ سنتين ثلاثة أربعة لا أدرى ، فقد انقطع التاريخ عندها .

ربما كانت جائزة نوبل فى الآداب شيئا آخر فالجهة التى ترشح لجائزة أدبية لابد من أن يكون فيها بعض الأدباء ، وكذلك الجهة التى تنتخب ، والظن فى الأدباء أن يتعصبوا للأدب ، لا للسياسة ولا للعنصرية ، ومع ذلك فقد ساء ظنى بهذه الجائزة أيضا منذ أخذها سالنجر ، وكنت قد قرأت له رواية طويلة وعددا من القصص ، ثم لم أر ما يدعونى إلى الاستزادة منه فقد أطبق على أنفاسى بجوه الخانق ، وشعرت أن جيتو كبيرا يمد أصابعه الطويلة كالأخطبوط ليحيط بمدينة حديثة وعظيمة ، سالنجر يهودى أمريكى ، ولا اعتراض لى على ذلك ، ولكنه يعرض يهوديته ، بصورة فظة ، بحيث تبحث فى داخلها عن « الإنسان » فلا تكاد تجده .

وأدباؤنا العرب ، عفا الله عنهم ، متلهفون على الجائزة العالمية العتيدة ، لا أريد أن أظلم أو أقسو ، ربما كان كبارهم ، الذين يمكن

★ الرياض ١١/١١/١٩٨٣

أن يرشحوا للجائزة فعلا ، هم الأقل اهتماما بها ، أو حديثا عنها ، ولكننى أتمنى عليهم ، وهم من هم ، أن يزجروا من حولهم من طوائف الحواريين ، والمتحمسين ، والمبشرين ، كلما لاحت طلائع الموسم ، وبدأ المتنبئون الحالمون يتساءلون : هل يفوز بها كاتب عربى هذه المرة ، وما أكثر ما تحول التساؤل إلى استطلاع للرأى ، هذا يرشح فلانا ، وهذا يرشح علانًا ، وهذا لا يرشح أحدا . وهذا يطعن فى الجائزة ، وهذا يطعن فى الأدب العربى ، وإذا كان وراء الاستطلاع صحفى ذكى امتشق بعض النقاد أقلامهم وراحوا يتجادلون حول « عالمية » الأدب العربى هل « أصبح » الأدب العربى عالميا ؟

واذلاه ، وواحر قلباه ، كأن الأدب العربى لم يكن عالميا قط ، وكأن العرب محتاجون إلى شهادة من مجمع سويدى لكى يؤمنوا برسالتهم العالمية ، فى الأدب وفى غير الأدب .

ويا لها من عالمية بائسة ، تلك التى تنسى كينونتها ، وتتنكر فى غير أزيائها ، وتتحدث بغير لسانها ، وتندس فى زحام الأجانب واهمة أنهم يحسبونها منهم ، وهم ينظرون إليها مبتسمين ، إما راحمين وإما هازئين ، هذا إن التفتوا إليها فى الزحام !

أذكر أن قصاصا أمريكيا زار القاهرة ، فى جولة من تلك الجولات الثقافية التى تنظمها حكوماتهم ، وكنت قد قرأت له بعض ما كتب ، إذ كان يعد وقت ذاك من الأسماء الجديدة « اللامعة » ومع أنى وجدته قصاصا عاديا ، فقد ذهبت لأستمع إلى محاضرته ، فكانت أتفه من قصصه ، وخرجت آسفا على الوقت الذى أضعته . ولعله كان يتجه وسط الزحام إلى حجرة « يستريح » فيها من عناء المحاضرة عندما اعترضه « فلان » وبدأه بالحديث .

كان يثير معه نقطة لا قيمة لها ، لكى يقول بعد بضع ثوان :

ـ أنا أيضا أكتب القصة القصيرة .

وفلان الذى انطلق من عرض الناس ليقدم نفسه إلى الفتى الأمريكى القصاص ، ونسى فى لهفته أن يلتفت لعل أحدا يلاحظ حركاته أو يسمع كلماته ، كاتب مشهور عند قراء العربية ، وعظيم جدا عند نفسه ، ولكنه ينسى كبرياءه إذا قابل كاتبا أمريكيا أو أوربيا قد يكون أقل منه قيمة .

وأنا أفهم أن ترجمة بعض أعمال الكاتب إلى لغات أجنبية شهادة له بأنه كاتب مهم ـ أيا كان معنى هذه الأهمية عندك ـ ولكننى لا أذكر أنى وقعت على كتاب واحد لكاتب واحد أمريكى أو إنجليزى أو فرنسى تضمن فى آخره ثبتا بأعمال الكاتب المترجمة إلى اللغات الأجنبية ، وأعيانى أن أجد كتابا واحدا لأستاذنا وشيخنا توفيق الحكيم خلا من هذا الثبت ، ولم ينكر أحد عليه ذلك حتى هذه اللحظة .

ولست أدرى من أين يأتى بعض الصحفيين بأخبار جائزة نوبل وترشيحات جائزة نوبل ، ولكنى قرأت وسمعت منذ سنين طويلة أن طه حسين رشح ، ثم أن توفيق الحكيم رشح ، وكذلك اسم أو اسمان لا وزن لهما ، لا هنا ولا هناك ، وقبل شهرين أو ثلاثة كنت فى القاهرة ، وقال لى أحد الأدباء فى حديث على الهاتف :

ـ هل علمت أن نجيب محفوظ مرشح لجائزة نوبل ؟

قلت :

ـ شىء عظيم .

قال :

ـ هو بين الخمسة الذين اختيروا ليكون الفائز واحدا منهم .

فضحكت فى سرى لأن الفوز بجائزة نوبل أصبح مثل الفوز بدورى كرة القدم ، ولكننى قلت : شىء عظيم .

وانفض المولد ، ولم يفز نجيب محفوظ بالجائزة كما لم يفز بها طه حسين ولا توفيق الحكيم ، وساءنى ـ كما ساءنى فى المرات السابقة ـ أن ندفع بأسمائنا الكبيرة وراء حدودنا ، ونترقب أخبار انتصارها كأن مصيرنا ومصيرها يتقرر هناك ، ولو كنا أصحاء ، ولو كنا واثقين بأنفسنا ، لما أهمنا التفكير فى كيف نبدو للآخرين ، ما دمنا قائمين بما يجب علينا نحو أنفسنا .

درس من الجائزة

أخلفت لجنة جائزة نوبل ظنوننا السيئة هذا العام ، وفاجأتنا بالخبر السعيد ، ما أسرع ما تصدر نشرات الأنباء والتقطته مانشيتات الصحف ، تبادلنا التهانى ، فأنا لا أعرف إنسانا واحدا يعادى نجيب محفوظ ، أو يعاديه نجيب محفوظ ، وما أجمل أن يظفر الرجل ، بعد كفاح أكثر من نصف قرن فى حرفة الأدب ، بالتقدير العالمى الذى يستحقه ، وفوق ذلك مبلغ طيب من المال ، يمكن أن يقارن بالجائزة التى تمنح لملاكم محترف أو لاعبة تنس محترفة بعد مباراة واحدة من المباريات الكثيرة التى تقام كل عام .

ولكننى ، بعد أن مرت على الخبر بضعة أيام ، وطلب منى « الهلال » أن أكتب كلمة بهذه المناسبة ، ساورتنى بعض الشكوك ، كما يحدث للكثيرين غيرى عقب أى نبأ سعيد ، وخاصة عندما يكون النبأ سعيدا جدا ومفاجئا جدا ، كهذا النبأ الذى جاءنا عن المجمع السويدى الشهير .

تخيلت أننا ـ جماعة من الفقراء على باب الله ـ جاءتنا دعوة لحضور حفلة تنكرية راقصة فى قصر أحد النبلاء ، شىء ولا فى الأحلام ، نلم شعثنا ونذهب ، حاسبوا يا أولاد . انتبهوا جيدا لئلا تفضحونا ، فنحن مازلنا أولئك الفقراء ساكنى الأكواخ ، حتى حين ندعى إلى قصر الأمير .

★ الهلال : ديسمبر ١٩٨٦

وما ذلك لأننا نستصغر أنفسنا ، فنحن مازلنا ـ بحمد الله ـ نملك تلك الكبرياء التى لا يشعر بها سوى الإنسان الفقير ، لأنها كل ما يملكه ، إنما الذى يزعجنا أن فى أعماقنا سؤالا ، لم نظفر له بجواب : لماذا تذكرونا هذه المرة ؟ ونحن نعلم أنهم ينظرون إلينا على أننا بشر غير كاملى الإنسانية .

وكل من لم يولد تحت سماء الغرب فهو جاهل شقى لا يحسن أن يقوم بأمر نفسه ، وقلما يقبل التعليم لأن طبعه النكد إما أن يرفض التعليم وإما أن يسخّر ما حصله منه لخدمة نزعاته الشريرة ، فهل الدعوة التى جاءتنا إلى مهرجان نوبل تعنى أنهم قرروا أن يتألفونا ، ولأى غرض ؟ وإلى أى أمد ؟

أود أن أقول لمجتمع القوم ، بكبرياء الفقير المنبوذ : كاتبنا العظيم نجيب محفوظ ليس فى حاجة إلى اعترافكم ، رواياته تدرس فى جامعة القاهرة منذ الخمسينيات ، نقادنا عرفوا قدره ورافقوه فى مسيرته الطويلة ، وأنتم ماذا قرأتم لنجيب محفوظ ؟ رواية أو روايتين ، أو ربما بضع أقاصيص ؟ أعظم أعماله : « الثلاثية » التى توجت مرحلة الواقعية ، و« الحرافيش » التى أحيت فن القاص العربى بعد عهود طويلة من التلمذة المتواضعة للغرب ، كلاهما لم يترجم بعد إلى الإنجليزية ، أو الفرنسية ! لقد اتهمت معلوماتى ، فراجعت الدكتورة سيزا قاسم صاحبة البحث القيم عن الثلاثية ، الذى نالت به درجة الدكتوراة من جامعة القاهرة ، فأكدت لى صحة هذه المعلومات ، وزادت عليها أن ترجمة فرنسية للجزء الأول من الثلاثية ظهرت منذ وقت قريب .

وسمعت أن اللجنة نوهت برواية « أولاد حارتنا » ، ولعلها الرواية الوحيدة التى قرأوها له ، ولعل معنى هذا التنويه أن الروائى العربى منح الجائزة عن هذه الرواية (والعادة فى جائزة نوبل أن تربط بعمل أساسى واحد) .

أنا لا أريد أيها الأصدقاء أن أكون صوتا ناشزا فى جوقة الفرح ، ولكننى لا أريد أيضا أن يربط أحد ، فى الشرق أو فى الغرب ، اسم نجيب محفوظ باسم باسترناك أو سولجنتسن ، لا تقليلا من قيمة هذين الروائيين الكبيرين بل لأن مثل هذا الربط يحمل دلالات كريهة .

وحسنا فعلت مصر الرسمية ومصر المثقفة حين أعلنت سعادتها بمنح جائزة نوبل لنجيب محفوظ ، إذا كان القصد من هذا الإعلان أن يعلم العالم أن نجيب محفوظ لم ينبذ ، ولم توصد أمامه أبواب النشر ، لأنه كتب « أولاد حارتنا » . حسنا فعلت إذا كانت تعنى بهذا الترحيب أن منع نشر « أولاد حارتنا » كان عملا سياسيا ، اضطرت إليه مصر الثقافة ، مصر الفن ، فى وقت من الأوقات اتقاء لفتنة فئة جاهلة متعصبة .

يستنكر بعض الأدباء أن تبقى « أولاد حارتنا » محظورا تداولها فى مصر بالذات ، بينما تقام الأفراح والليالى الملاح لكاتبها الذى منح جائزة نوبل من أجلها ! وكأنهم يرون أن الإفراج عن هذه الرواية يصحح الموقف .

وأقول : على رسلكم ! لا نريد ، وبكل تأكيد لا يريد نجيب محفوظ ، أن يأتى أمر الإفراج من إحدى عواصم الشمال .

إذا كان للجنوب أن يتحرر ، فعليه أن يتحرر من داخله .

إذا كان للجنوب أن يتعلم ، فعلى متعلميه أن يعلموا جهاله .

إذا كان للجنوب أن ينبذ التعصب ، ويستقبل النور ، فعلى أهله أن يتحاوروا بالحسنى ، وعلى كل صاحب دعوة أن يعلم نفسه ، قبل أن يتصدى لتعليم غيره .

من تاريخ الحكم « المصرى الإنجليزى » فى السودان الشقيق ، أن نائب « المأمور » المصرى كان يأخذ أهل البلاد بالشدة تنفيذا لتعليمات رئيسه « المأمور » الإنجليزى ، فإذا شعر السودانيون بالظلم لجئوا إلى المأمور الإنجليزى ، فيرفع عنهم أحكام مرءوسه المصرى ! وهكذا كره السودانيون المصريين ، وأحبوا الانجليز .

مغزى القصة لا يحتاج إلى شرح ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

نحن والغرب والمشروع القومى

فوجئنا ، فى الشهر الأخير ، بأحداث لم تكن فى حسبان أحد . وبين كتابة هذه الكلمات وقراءتها ستمضى الأحداث فى اندفاعها المخيف . لعل أحدا فى العالم ـ عدا صناع الحدث أنفسهم ـ لم يكن يتوقع أن يجرى ماجرى ، أما الآن فحتى صناع الحدث لايستطيعون التنبؤ بما سيجرى . وفى مثل هذه الأوقات العصيبة لايكون التنبؤ سوى مشغلة سخيفة ، أو تنفيس عن أعصاب مضطربة ، ويصبح الموقف الوحيد الذى يليق بالإنسان هو التأمل فيما جرى ، وربطه بجذوره العميقة ، والخروج بدليل عمل لما يجب عليه القيام به ، **هنا والآن** ، هذا إذا لم يرد أن يقع صريعا تحت عجلة الأحداث ، وعندما أتحدث فى مثل هذا الموقف عن « الإنسان » فأنا أعنى كل إنسان عربى بمفرده ، وأعنى العرب مجتمعين ، فهذه لحظة من اللحظات التاريخية النادرة التى توقد شعلة فى الضمائر الحية تقول : إنه لاحياة للفرد بدون الجماعة ، ولا حياة للجماعة بدون الفرد .

هذه الشعلة أراها الآن ـ تحت مظاهر الخلاف ـ تتوهج فى النفوس العربية من المحيط إلى الخليج ، لا فرق بين فقير وغنى ، أو حاكم ومحكوم .

وليس مايجرى الآن فى العالم العربى انتكاسة أو انهيارا . إنه على العكس ، تطور حاسم وعظيم ، فقط نحتاج إلى أن نفهم معناه !

المظاهرات التى خرجت تؤيد هذا الفريق أو ذاك ، إنما تطالب فى الحقيقة بشىء واحد ، وتقرر حقيقة واحدة !

أما الحقيقة فهى أن العرب أمة واحدة ، وأما المطلب فهو أن يكون لهذه الأمة كيانها المستقل عن كيان الغرب ، وسياستها المستقلة عن سياسة الغرب ، وإرادتها المستقلة عن إرادة الغرب .

هذه الشعوب التى زعموها ماتت ، تنتفض اليوم أشد ماتكون حياة .

والاتصالات المستمرة بين الحكام ، اتفقوا أم اختلفوا ، تعنى شعور الجميع بضرورة الوحدة .

إنما الصدع هو أن طريق الوحدة لم يتضح بعد عند الجميع . فهو عند أحد الفريقين مبنى على وهم ، وعند الفريق الآخر محجوب وراء صخور الماضى ، مغلف بضباب الخوف على مصالح شخصية هى بطبيعتها غير مضمونة .

فأما الوهم ـ وهذا أوان المصارحة ولو كانت مُرة ! ـ فهو أن السواد الأعظم من الشعوب العربية مازالت تحلم بالبطل المنقذ ، القائد الملهم ، الذى يعيد إليها حقوقها المغصوبة ، ويشهر سيفه العربى فى وجه الغرب المعتدى . ومازالت أسطورة صلاح الدين ، التى تغنى بها ألف شاعر وناثر ، تلهب خيال الجماهير ، وتلقى على أبصارهم غشاوة أن يبصروا عالم اليوم ، ولعلهم لايفهمون أيضا معنى بطولة صلاح الدين ، فى عصر صلاح الدين . وهم معذورون لأن الحكام المحافظين لايقدمون إليهم طريقا آخر للحرية والوحدة ، ولأن المثقفين الذين يعدون انفسهم ثوريين ، أغرقوهم فى سيل من الكلام ، وشغلوهم بخلافات غامضة ، وقضايا بعيدة عن واقعهم ، فأصبحت أشد الشعارات بساطة هى أقدرها على التأثير فيهم ، لأنها تخاطب فيهم العاطفة ولاتخاطب الفكر .

وأما الطريق الآخر ، الطريق الرسمى ، فيريد وحدة لاتمس الكيانات القائمة ، ولاتتناول نظام الحكم ، ولاتطرح أهدافا قومية ، ولاخططا مشتركة . فهى وحدة اسمية تمثلت فى واجهات ليس

وراءها عمل ، ابتداء من الجامعة العربية إلى « الاتحادات » الإقليمية المعروفة . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن من مزايا الأزمة الحالية أنها أحرقت هذا الزيف كله ، فإما وحدة وإما لا وحدة ولتدخر كل حكومة من الحكومات العربية المشتركة فى هذه اللعبة ، رجالها وأموالها لما هو أنفع .

ولكن هل ثمة ماهو أنفع من وحدة عربية شاملة تضمن لكل شعب عربى ولكل فرد عربى أمنه وسلامته ؟ لقد أثبتت الأحداث حتى من قبل الأزمة العراقية الكويتية الأخيرة ، أن الأمن والرفاهية لايتحققان بالمقدرة المالية وحدها . فدول الخليج العربى الصغيرة الغنية تبدو فريسة سهلة ، بقدر ما هى غنية ، لكل طامع . والطامع الأكبر هو الغرب بدون شك .

ومن ثم فقد يبدو حكام هذه الدول أمام الشعوب - حتى شعوبهم هم أنفسهم - مفرطين بل خائنين إذا هم ظلوا مترددين فى تنفيذ هذه الوحدة التى هى السبيل الذى لاسبيل غيره للتخلص من سيطرة الغرب . هى إذن وحدة طوعية يمكنهم أن يقدموا عليها مطمئنين ، مرضيين من ربهم ومن شعوبهم وشعوب الأمة العربية كافة . بل هى الضمان الصحيح لبقائهم وبقاء عروشهم وامتيازاتهم ، وقد عرفوا ، من تجارب سابقة ملاصقة لهم ، أن « الغرب » صديق لا يؤتمن !

وبما أن الوحدة هى أساسا مطلب شعبى ، فيجب أن توضع دولة الوحدة فى يد شعوب الأمة العربية ، بعبارة أخرى : يجب أن يكون لهذه الدولة الموحدة نظام سياسى واحد ، وهو النظام الديمقراطى . والنظام الديمقراطى مطلب لايقل أهمية لدى القيادات الشعبية الرشيدة فى مختلف أقطار العالم العربى ، عن مطلب الوحدة ، بل لعله أهم ، ولعله قد وضح الآن لهذه القيادات أن الوحدة سند ضرورى للديمقراطية ، كما أن الديمقراطية شرط لازم للوحدة .

ولعل الأحداث الأخيرة لم تمح من ذاكرتنا أن الكويت شهدت

قبلها بقليل معركة طويلة فى سبيل الديمقراطية . ولعلنا نذكر أيضا أن المعارضة الديمقراطية وقفت موقفا نبيلا حين غزيت الكويت ، فرفضت أن تتعاون مع الغازى وان كان جارا وشقيقا عربيا ، ووردت بعض الانباء بأن زعيم المعارضة دفع ثمنا لهذا العناد حياته نفسها . فطريق الديمقراطية غير طريق العنف . وقد تعلم الديموقراطيون من تجارب الماضى القريب أن الانقلاب الشامل المفاجىء الذى يمكن أن تقوم به فئة قليلة أو يعتمد على شخصية زعيم أوحد ، لايلبث أن يتطرق إليه الفساد والانحلال ، وأن التطور السريع فى ظل الشرعية الديمقراطية أسلم عاقبة وأبقى أثرا . ولعل الحكام التقليديين - من جهتهم - قد ثبت لديهم أن الخطر لايأتيهم من قبل الطلائع الديموقراطية الواعية فى بلادهم ، التى يعدونها بـ « الشورى » منذ سنين كثيرة ، ويؤجلون تنفيذ هذا الوعد لأسباب مختلفة ، بل من قبل أجنبى طامع ، أو انقلابى طامع ، أو من قبل « جهيمان » وأمثال جهيمان .

وقد تعمدت أن أتكلم عن الديموقراطية وأضع الشورى بين أقواس . فالشورى « مبدأ » إسلامى ، والديموقراطية «نظام» سياسى ، والفرق بين المبدأ والنظام لايخفى على أحد . فالمبدأ ثابت باق ، ولهذا فهو صالح لأن يفسر تفسيرات كثيرة ، ويترجم بنظم مختلفة ، والديموقراطية هى أصح هذه التفاسير وأقوم هذه النظم حتى الآن ، وإن لم تكن خالية من العيوب ، ولكن هذه العيوب لاتدعو إلى نبذها ، واللجوء إلى كلام عام مبهم عن الشورى .

أقول هذا وأمامى واقع العالم العربى يقول بأفصح بيان : إن الوحدة المنشودة لايكفى أن تكون ديموقراطية فحسب بل يجب أن تكون إسلامية أيضا ، ولعل هذا الوصف الأخير يثير أكبر قدر من الشك ، فقد اقترن بفضل نشاط فئات متطرفة هنا وهناك - بفكرة الإرهاب ، والخوف من تسلط أقلية جاهلة متعصبة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة ملايين البشر العاديين فى مختلف الأقطار العربية ، ومعظم سكانها مسلمون ، وفيها أيضا طوائف دينية

مختلفة لايستهان بعددها ولابقدراتها .

ولكن هذه الأقلية الجاهلة المتعصبة لاتمثل الفكرة الإسلامية في جوهرها . فمعظم المسلمين فى الأقطار العربية يجدون فى الإسلام طبا لأرواحهم وقيما على سلوكهم . وقد كان أسلافنا يقولون : إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن . ولكن أى إنسان ذلك الذى لايفعل شيئا ولايدع فعل شىء إلا طمعا فى مكافأة أو خوفا من عقوبة ؟ إن أى نظام ـ ولو كان النظام الديموقراطى ـ لا يستغنى عن ركيزة روحية يقوم عليها كيان الفرد ، وتمتد منها وشائج التعاون والمحبة بين الأفراد .

وبهذا الفهم الغريزى للإسلام ، تتوجه نحوه قلوب الملايين في الشعوب العربية أملا فى حياة أفضل .. وما أظن إلا أن أكثرهم يفهمون الحكومة الإسلامية . بهذا المعنى . وإنما الخوف من وقوع بعضهم تحت سيطرة الجهلاء الذين يدعون العلم بالدين ، وتتملكهم شهوة السيطرة والتحكم فى عباد الله ، إن لم تكن فيهم نزعات إجرامية تتخذ شكل الدين كما يمكن أن تتخذ أى شكل آخر . فالأخذ على أيدى هذه القلة المريضة ـ إن لم يكن علاجها بالرفق ـ ينبغى ألا يكون سببا فى حرمان أكثرية المؤمنين من صفة يرونها جوهر وجودهم الاجتماعى ، وهى كونهم مواطنين فى دولة إسلامية .

ولمن يسمون أنفسهم بالعلمانيين أقول : لا بأس عليكم فأنتم أيضا إسلاميون ! وحجتكم البالغة قول نبى الإسلام ، صلى الله عليه وسلم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » !

ولمن يخافون من تطبيق الحدود ، أقول : لا بأس عليكم أيضا ، فالحدود فى الإسلام اختيارية ، وقد كان من أهل الصدر الأول من لم يتشدد فى تطبيق الحدود ، والذين يحتجون علينا بقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » عليهم أن يقرءوا الآية من أولها ، حيث ورد بعد ذكر القصاص : « فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (المائدة/ ٤٥)

وليس هذا مقام نقاش فى هذه القضايا الكبيرة الشائكة ، ولكننا نرجو فقط أن يسلم بمبدأ النقاش ، وألا يسرع صاحب الرأى إلى السلاح يفرض به رأيه ، وأن يتذكر المبدأ القويم الرحيم : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

× × ×

ولابد أن يقوم سؤال : هل يسكت علينا الغرب حتى نقيم هذه الوحدة ؟

وهو سؤال وجيه . فتاريخ الغرب ، ولاسيما الولايات المتحدة ، فى تشجيع دولة إسرائيل على سياستها العدوانية المستمرة ، أو السكوت على هذه السياسة ، أو - فى أحسن الأحوال - تأنيبها برفق ، تأنيبا لايرد عدوانها ، وإنما يقصد به تطييب خاطر الأصدقاء العرب ، تاريخ أسود .

ولكن الانتفاضة الفلسطينية أبرزت حقيقة جديدة ، كما أن الاجتياح العراقى للكويت أبرز حقيقة جديدة أخرى .

فأما الانتفاضة فقد هزت ضمائر الشعوب فى الغرب ، وللشعوب فى دول الغرب الديموقراطية تأثير قوى فى توجه حكوماتها ، ومن هنا كانت قرارات تلك الحكومات بتشجيع المعاملات التجارية مع الضفة الغربية وقطاع غزة بمعزل عن الهيمنة الإسرائيلية ، وقراراتها برصد مبالغ قيمة للمعونات الإنسانية للفلسطينيين . وهكذا بدأ وجه إسرائيل القبيح يظهر للعالم ، وكانت هذه هى البداية الصحيحة لحصول الشعب الفلسطينى على حقوقه كاملة . وما حديث مانديلا والمؤتمر الأفريقى عنك ببعيد .

وأما الاجتياح العراقى للكويت فقد أظهر لأول مرة أن الحكومة العالمية بدأت بالفعل . فقد اتخذ مجلس الأمن ثلاثة قرارات بالادانة ومعاقبة المعتدى لم يعارضها أحد ، ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية بدت متحمسة أكثر مما ينبغى لوضع هذه القرارات موضع التنفيذ ، فإن حرصها على تأمين موافقة دولية على الخطوات التى اتخذتها دليل على أنها مهما بلغ من قوتها

وسلطانها ـ ليست الأمر الناهى فى مصاير شعوب العالم . وهذه عبرة يستخلصها الأحرار فى كل مكان ، ويستشفون منها صورة المستقبل .

وظهر أيضا أن التناقض بين الدولتين العظميين قد زال أو هو فى طريقه إلى الزوال ، ومن ثم لم يعد ممكنا أن تلعب الدول الصغرى على هذا التناقض ، وأصبح من الضرورى أن يطرح العرب مشروعهم القومى بطريقة مختلفة .

فالعرب الذين يجلسون على مفترق طرق العالم القديم ، وفوق

أضخم مخازن الطاقة فى العالم كله ، لايمكنهم أن يخوضوا صراعا مسلحا ضد الغرب ، وسيضطرون ـ إذا اختاروا طريق الصراع ـ أن يلجأوا إلى الارهاب واحتجاز الرهائن ، وسيكون لدى الغرب مايرد به على هذه الوسائل ، ولو عن طريق دولة إسرائيل ، وسينظر إلى العرب على أنهم أشرار العالم ، وبدلا من عزل الصهيونية تمهيدا لتصفيتها سيكون كل ماتقوم به إسرائيل لدحر العرب وإذلالهم مقبولا ومباركا من معظم دول العالم وشعوبه أيضا .

ليس هذا هو الدور الذى يليق بتاريخ العرب الحضارى .

ولكن دولة واحدة للعرب جميعا ، تقوم على العدالة

والديموقراطية واحترام حقوق الإنسان ، وتنادى بالسلام والإخاء بين جميع شعوب العالم (بما فيها شعب إسرائيل) لن توضع فى طريقها عقبات يصعب التغلب عليها ، وسيكون فى استطاعتها بقليل من الصبر ، أن تهزم الصهيونية الباغية فى معركة السلام ، وأن تعيد إلى شعب فلسطين حقوقه الطبيعية كاملة .

قد يبدو هذا أشبه بالحلم ، ولكنه حلم قريب المنال جدا .

« إنهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا » .

حقا إن صورة العالم الجديد لن تكتمل إلا بعد سنين ، وربما بعد

أجيال . ولكن مكاننا فيها يجب أن يتحدد فى خلال اسابيع ، أو فى خلال أيام ! وإذا وضحت الرؤية فقد يمكن وضع دستور دولة الوحدة فى أربع وعشرين ساعة ، والاستفتاء عليه فى أسبوع !

فلنكف عن التباكى على مافات ، ولننظر إلى مايمكننا أن نفعله ، هنا والآن ، ولاتكن الحوادث أسرع من استجاباتنا ، فنقذف كلنا ، بقضنا وقضيضنا ، فى مزبلة التاريخ !

كتاب الهلال القادم

مع الايام ..

شىء من الذكريات

بقلـم

د . ابراهيم بيومى مدكور

يصدر :

٥ أكتوبر سنة ١٩٩٠

فهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٥٨٤٣ / ١٩٩٠
I · S · B · N
977 — 07 — 0017 — 7

هذا الكتاب

المقالات التى يضمها هذا الكتاب محاولة جادة لفهم الغرب ، فهم موقفه منا ، وموقفنا منه .

والموقف فى الحالتين ، فكرى ونفسى قبل أن يتخذ شكل قرار سياسى . وقد لا يكون من السهل أن نغير موقف الغرب منا إلا إذا بدأنا نحن فغيرنا موقفنا منه . إن موقفنا النفسى من الغرب مزيج من العداوة والاعجاب ، من الشعور بالاختلاف والرغبة فى الغرب . والخلفية التاريخية والواقع المعاصر لهذه العقدة المستعصية يعالجان هنا بموضوعية كاملة . لعلنا أحوج ما نكون اليها فى هذه الآونة بالذات .


يخلصك من الأدخنة
وجميع الروائح
الغير مرغوبة
شفاط حائط • شفاط زجاج
شفط طرد • قوة تحمل
• سهل التنظيف
شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات
١٣، شارع سيف الدين المهراني - ميدان - مسيس
٩٠٨٨٤٤، ٩٠٠٦٧٢ فاكسميلي ٩١١٦٩٠ ص.ب ١٧٠ الفجالة تلكس ٢٢٥٦٠